هأَنَذَا صَانِعٌ أَمْرًا جَدِيدًا.
أَلاَ تَعْرِفُونَهُ؟ (إشعيا)

رياضة روحيّة لأخويّة
شــراكة وتحــرّر

ريميني 2018

© 2018 جميع حقوق نشر كتابات لويجي جوسّاني وخوليان كارّون محفوظة لأخويّة شراكة وتحرّر

صورة الغلاف: فنسانت فان غوغ، أغصان زهر اللوز، سان ريمي دو بروفانس، شباط / فبراير 1890، © متحف فان غوغ في أمستردام (مؤسّسة فنسانت فان غوغ)

التعريب من الإيطاليّة: كميل عيد

«بمناسبة الدورة السنويّة للرياضة الروحيّة لأعضاء أخويّة شراكة وتحرّر والتي تُعقد في ريميني بعنوان: "هأَنَذَا صَانِعٌ أَمْرًا جَدِيدًا. أَلاَ تَعْرِفُونَهُ؟"، يتقدّم قداسة البابا فرنسيس بعواطفه الودّيّة وتمنّياته بالنجاح. وهو يدعو إلى القيام بخبرة حيّة للمسيح الحاضر في الكنيسة وفي أحداث التاريخ، وتغيير حياتنا من أجل تجديد العالم بقوّة الإنجيل. إنّ التأمل بوجه يسوع الميت والقائم من بين الأموات هو ما يعيد تجميع إنسانيّتنا، حتى تلك التي يصدّعها إرهاق الحياة، أو التي تطبعها الخطيئة.
ويأمل الأب الأقدس أن يشهد أولئك الذين يتبعون موهبة المونسينيور لويجي جوسّاني على محبّة الله الملموسة والقويّة، والتي تعمل بحقّ في التاريخ وتحدّد مصيره النهائيّ. وفي حين يسأل الصلاة من أجل دعم خدمته البطرسيّة، يستمطر حماية العذراء مريم السماويّة، ويمنحك وجميع المشاركين من كلّ قلبه البركة الرسوليّة التي التمستموها، شاملا بها أولئك المتواصلين معكم عبر الأقمار الصناعيّة وكامل الأخويّة».

الكردينال بياترو بارولين، أمين سرّ الدولة لصاحب القداسة
27 نيسان / أبريل 2018

الجمعة 27 نيسان/أبريل بعد الظهر

عند الدخول والخروج:
أنتونين دفوراك، ستابات ماتر، العمل 58
رافايل كوبليك – الأوركسترا السمفونية لإذاعة بافاريا
سبيرتو جنتيل 9، دويتشي غراموفون

المقدّمة
خوليان كارّون

«هأَنَذَا صَانِعٌ أَمْرًا جَدِيدًا. أَلاَ تَعْرِفُونَهُ؟»[1] إنّ القدرة على ملاحظة الأشياء تنتمي إلى طبيعة الإنسان، فهي جزء من عظمته التي لا مثيل لها لدى أيّ مخلوق آخر. للأسف، يسود فينا في كثير من الحالات التسليم بمجرى الأمور أو السطحيّة. مَن بيننا، لدى رؤيتنا الوجوه التي رسمها كارافادجو، أثناء استماعنا إلى *Fac ut ardeat cor meum* من *Stabat Mater* دفوراك، لم يشعر بكلّ الرغبة في أن ينتشي كتلك الوجوه، التي غمرتها معرفة للمسيح اخترقتها حتّى الصميم؟ ولكن – نفكّر – كيف يمكننا، بهشاشتنا، التوصّل إلى معرفته؟ لهذا يقدّم لنا يسوع عزاءً كبيرًا: «أنتم بحاجةٍ للروح. والروح هو من يرشدكم إلى جميع الحقّ»[2]. فلنطلب إذن من الروح أن يقودنا إلى معرفةٍ للمسيح تكون حاضرة في الواقع، في التاريخ، وتجعل قلوبنا تضطرم.

هلمَّ أيّها الروحُ القدس

أبدأ بقراءة رسالة الترحيب التي أرسلها لنا الأبُ الأقدس: «بمناسبة الدورة السنويّة للرياضة الروحيّة لأعضاء أخويّة شراكة وتحرّر والتي تجري في ريميني بعنوان: "هأَنَذَا صَانِعٌ أَمْرًا جَدِيدًا. أَلاَ تَعْرِفُونَهُ؟"، يتقدّم قداسة البابا فرنسيس بعواطفه الودّيّة وتمنّياته بالنجاح. وهو يدعو إلى القيام بخبرة حيّة للمسيح الحاضر في الكنيسة وفي أحداث التاريخ، وتغيير حياتنا من أجل تجديد العالم بقوّة الإنجيل. إنّ التأمل بوجه يسوع الميت والقائم من بين الأموات هو ما يعيد تجميع إنسانيّتنا، حتى تلك التي

[1] سفر إشعيا 43، 19.
[2] راجع يوحنا 16، 13.

يصدّعها إرهاق الحياة، أو التي تطبعها الخطيئة. ويأمل الأب الأقدس أن يشهد أولئك الذين يتبعون موهبة المونسينيور لويجي جوسّاني على محبّة الله الملموسة والقويّة، والتي تعمل بحقّ في التاريخ وتحدّد مصيره النهائيّ. وفي حين يسأل الصلاة من أجل دعم خدمته البطرسيّة، يستمطر حماية العذراء مريم السماويّة، ويمنحك وجميع المشاركين من كلّ قلبه البركة الرسوليّة التي التمستموها، شاملا بها أولئك المتواصلين معكم عبر الأقمار الصناعيّة وكامل الأخويّة. من الفاتيكان، 27 نيسان 2018، الكردينال بياترو بارولين، أمين سرّ الدولة لصاحب القداسة».

1. نتيجة الانزياح

منذ لقاء بداية العام وأنا أفكّر بجملة لدون جوسّاني ظلّت تنخزني: «في البداية كنّا نبني، كنّا نحاول البناء على شيء ما يحدث [...] استحوذ علينا. وعلى الرغم من سذاجة وعدم تناسب هذا الموقف بشكل صارخ، إلا أنّه كان موقفًا صافيًا. ولهذا، وبسبب تخلّينا عنه، كوننا تموضعنا في موقف كان قبل كلّ شيء، أوشك أن أقول، "ترجمة ثقافيّة" بدلًا من الحماسة لحضور، فإنّنا لا نعرف – بالمعنى البيبليّ للمصطلح – المسيح، نحن لا نعرف سرّ الله، لأنّه ليس مألوفا بالنسبة لنا»[3].
لقد كان من تبعات الانتقال من الحماسة لحضور إلى ترجمةٍ ثقافية عدمَ معرفتنا المسيح. وعدمُ معرفتنا المسيح يمكننا أن نراها من حقيقة أنّه ليس مألوفا بالنسبة لنا. يبدو لي أن ليس هناك من تحدٍّ أكبر من ذلك الذي ينطوي عليه هذا الاستفزاز: إن لم يصبح المسيح مألوفًا خلال مسيرتنا، فسيتناقص اهتمامنا به بشكل متزايد، وسوف يصبح كلُّ ما نقوم به نتيجة منفصلة أكثر فأكثر عن أصلها، كما هو الحال بالنسبة لغصن جافّ، تصيبنا بخيبة أمل متزايدة كلّ يوم، تترك لدينا المرارة.
لقد أتاح العملُ الذي أُنجز منذ يوم بداية العام لكلّ منّا أمكانيّة إدراك التقدّم الذي أحرزه في الأشهر الأخيرة. كيف نفهم ما إذا عرفنا المسيح أكثر؟ من خلال أيّة علامات يمكننا التحقّق من ذلك؟
لقد أعطانا دون جوسّاني معيارَ تحقّق من أجل أن نعرف ما إذا كان المسيح قد دخل حقًا أو هو يدخل أكثر فأكثر في حياتنا، وما إذا أصبح أكثر ألفة كلّ يوم. ولفهم ذلك، تكفي الإشارة إلى خبرة أوّليّة يقوم بها كلّ منا، فنحن نرى أنّ حضورًا ما، أو شخصًا ما، قد دخل حياتنا لدرجة أنّه يصبح مألوفًا عندما يحدّد طريقة مواجهة كلّ شيء،

[3] L. Giussani, *Una strana compagnia*, Bur, Milano 2017, pp. 88-89.

طريقة التعامل مع الأشياء والظروف. يكفي هنا أن تفكّروا بأطفالكم. على العكس من ذلك، عندما لا توجد هذه الألفة، أو إنّها لا توجد بما فيه الكفاية، فإنّ نقطة البداية تبقى كما كانت من قبل: انطباع معيّن عن الأشياء، والأنماط التي نحملها. يمكننا جميعًا التحقّق من صحّة ذلك.

ما يحدث مع المسيح ليس مختلفًا. إن لم يؤثّر حدث المسيح، في الواقع، على طريقة عيشي، على مثولي أمام الواقع، والأوضاع والتحدّيات اليوميّة، إن لم يحدّد حدث المسيح الحاضر الشكل الذي نعيش به الظروف، فهذا يعني أنّنا نواجهها كالآخرين، أي انطلاقًا من الانطباع الذي تثيره فينا، ومثل مثل غيرنا ينتهي بنا الأمر إلى الاختناق في حياة "تقطع أرجلنا"[4]. والنتيجة واضحة على الفور: حياة تسيطر عليها "انطباعاتنا" – فليفكّر كلّ منّا كيف يستيقظ بعض الأحيان – بدلا من زيادة الحماسة للمسيح، وتجعل من الإيمان غير ذي أهمّيّة للعيش على نحو متزايد، لأنّنا لا نرى علاقة المسيح بمتطلّبات الحياة.

ولكن إذا لم تزدد الحماسة للمسيح أكثر فأكثر، فأين نسعى إلى كمالنا؟ يمكن لكلّ منّا أن ينظر إلى حياته الخاصّة ويلاحظ ما الذي يطغى فيها. وبما أنّ قلبنا لا يمكنه أن يتوقّف عن الرغبة، فإنّنا سنسعى حتمًا لتحقيق كمال ما نقوم به نحن، في « جهد نشاطنا الحركيّ والعمليّ والخيريّ والثقافيّ والاجتماعيّ والسياسيّ»[5]، أو في مسعانا المهنيّ. وهكذا يصبح الإيمان مجرّد "مقدّمة" نتركها وراءنا. لهذا السبب كان دون جوسّاني يقول لنا إنّ «الخطأ الأساسيّ الذي يمكننا أن نرتكبه [...] هو أن نعتبر الإيمان أمرًا مسلّمًا به. وهذا يعني: بعد التسليم بالإيمان، نقوم الآن بأنشطة ثقافيّة»[6]. لا يعطينا دون جوسّاني مجالا لالتقاط أنفاسنا في هذا التذكير: «إذا كان كلّ ما ننتظره لا يُستنفد تمامًا في ما أُعطينا إيّاه، في حقيقة أنّه قد أُعطي لنا»، أي في حقيقة المسيح، فإنّ كلّ أنشطتنا، كلّ ما نقوم به «يصبح انتظارًا لملكوتنا».[7]

إنّ السؤال الذي يطرح نفسه حتمًا هو التالي: وهل هذه الأنشطة قادرة على جعلنا كاملين؟ جرس الإنذار هو ذلك الشعور بعدم الارتياح الذي يهاجمنا بسبب "عملٍ" لا

---

[4] C. Pavese, *Dialoghi con Leucò*, Einaudi, Torino 1947, p. 166.

[5] L. Giussani, *Una strana compagnia*, op. cit., p. 88.

[6] L. Giussani, *Dall'utopia alla presenza (1975-1978)*, Bur, Milano 2006, p. 173.

[7] L. Giussani in A. Savorana, *Vita di don Giussani*, Bur, Milano 2013, p. 392.

يرضينا في النهاية.
لكنّ عدم الرضى الذي نشعر به عندما نتوقع تحقيق الكمال ممّا نفعله يمكنه أن يصبح – إذا حافظنا على بساطة القلب – فرصة ومناسبة لنشعر بداخلنا بالحاجة الملحّة للعودة إلى البداية، إلى تلك الحماسة للمسيح التي استحوذت علينا.
كتب لي طبيب شابّ بخصوص حقيقة أنّ «الحاجة الملحّة للعودة إلى البداية»، إلى الحماسة للمسيح، إنّما تخصّ حياة كلّ واحد منا، بغضّ النظر عن عمره أو تجربته (قد يكون تعرّف إلى الحركة قبل سنة وعمره أقلّ من ثلاثين سنة) فقال:

«عزيزي خوليان، لقد بدأت أفهم في الأشهر الأخيرة ما قلتَه لنا مرّاتٍ عديدة، حول إن لم أتحقّق من علاقة الإيمان بمتطلّبات الحياة، فإنّ الحياة لا يمكنها أن تقاوم، والعلامة الأولى هي حالة شكوكيّةٍ – غير صريحة – أشبه بشكٍّ، بعدم إيمان حول حقيقة أنّ بعض الأشياء، بعض متاعب الحياة، يمكن المسيح أن يغمرها ويغيّرها. لقد حدث لي هذا في العمل. فأنا طبيب متخصّص في قسم ترتفع فيه وتيرة العمل، وتتوالى المنافسة والشكوى، في حين أنّ معظم الزملاء ليس لديهم أيّ شيء تقريبًا خارج العمل. في هذين العامين، وفي محاولة منّي للقيام بعملي بشكل جيّد، تركت نفسي أنساق به. وبعد خيبتي أمل كبيرتين في العمل، أدركتُ كم أنّ العمل – على الأقلّ من خلال عيشي له – ليس قادرًا من حيث الرضى على إعطائي حتى الجزء اليسير ممّا أعطيه أنا له، وهذه محصّلة سلبيّة على الإطلاق. لقد دفعتني هذه الحقيقة أيضًا إلى التفكير في أنّ العمل يسلبني من الوقت الذي أخصّصه لزوجتي وأصدقائي فازدادت شكواي! إنّ قراءة في مدرسة الجماعة، والذهاب إلى القدّاس، والتحدّث مع الأصدقاء – طالما أنّ المرء ليس على استعداد لتغيير وجهة نظره، لكنّه يريد فقط حلا لمشكلةٍ آنيّة – تبدو كلّها محاولات فاشلة، وتترك شكوكًا متزايدة حول قدرة المسيح على تغيير شيء بالنسبة إلى العلاقة بالعمل. وأخيرًا، حدث أمر ما. فمنذ شهرين تقريبًا أذهب أحيانًا إلى القدّاس قبل العمل. وهناك مجموعة من الحركة تذهب كلّ صباح، وفي نهاية القداس يحتسي الجميع القهوة سريعًا في المقهى المقابل للكنيسة: إنّه أمر تافه ومعتاد بالنسبة لهم. في صباح اليوم الأول لانضمامي إليهم كنت سعيدًا، وتوجّهت إلى عملي على متن درّاجتي الناريّة – وهي عادةً اللحظة التي أشعر فيها بالقلق من كلّ ما يجب أن أفعله وكافة الالتزامات التي يتعيّن عليّ أن ألحظها – بخفّة من رأى لتوّه شيئًا جميلًا. بينما كنت في معظم فترات الاستراحة أفكّر في ما ينبغي عليّ القيام به بعدها، في تلك الدقائق العشر كان أفراد المجموعة موجودين، مصغيين، حاضرين. لقد أدهشني أيضًا اهتمامهم بي، حيث لم أكن أعرفهم، وكذلك

اهتمامهم ببعض المشرّدين المتجوّلين أمام الكنيسة. لقد أدركت سلسلة من المعطيات التي دفعتني إلى التساؤل عمّا إذا كان من المستحيل بالنسبة لي أن أكون سعيدًا في عملي. لقد أحدثتْ حقيقة صغيرة فتحة في شكواي: سؤالٌ يدفعك إلى القيام بمسيرة. فخلال اجتماع معك ومع بعض العمّال الشباب، رأيتُ حدوث نفس ديناميّة المقهى، فقد أذهلتني حرّيّتك أمامنا، وعدم امتلاكك شيئًا تدافع عنه، بل والفضول لما قد يصدر عنّا. لقد أربكتني الأحكام التي قدّمتَها، والتي غالبًا ما كشفت القناع عن الرؤية المختصرة التي لدينا حول الواقع. أنا أفهم أنّ نظرة حرّة كهذه لا يمكن أن تكون نتاج ثقافة أكثر كمالا وانتباهًا لكتابات جوسّاني، ولا نتاج مشاركة في عددٍ أكبر من البادرات والتجمّعات، بل نتاج ألفة مع السرّ فقط. لهذا السبب رحت أنظر إليك بفضول وحسد، وكنت أتساءل باستمرار لماذا كنت تجيب على الاستفزازات المختلفة بطريقة مختلفة عمّا كنت سأفعله أنا. شعرت بتوتّر في التماهي معك، في محاولة فهمي كيف تنظر إلى الأشياء. لقد كان الأمر لطيفًا لأنّ الأمر بالنسبة لي كان في البداية على هذا النحو: تماهٍ شبه تلقائيّ نشأ من الذهول أمام اختلاف بشريّ».

انتبهوا، لاستعادة حماسة البداية لا تكفي الذكرى، لا يكفي اللقاء بالأصدقاء لتذكّر الزمن الماضي. فتذكّر شيء مضى لا يُعيد لنا البداية. إنّ تذكّر أوقات الخطوبة الجميلة لا يُعيد للزوجين الحماس الضائع في السنوات التالية. أتريدون دليلا ثابتًا على ذلك؟ انظروا إلى الشكوك التي تنساب إلى حياة الكثيرين من البالغين. والامكانيّة الوحيدة هي أن يحدث الآن مرّة أخرى ما ألهبنا في البداية.
لقد عبّر دون جوسّاني عن أيّ محاولة أخرى لاستعادة البداية بشكل قاطع: «لنفترض أنّ أناسًا اجتمعوا اليوم [...] مدفوعين بذكرى رائعة لحدثٍ أذهلهم – أو أفادهم ورفع من مستوى حياتهم – يريدون استعادته، وملء "انقطاع" نشأ على مرّ السنين. [...] فإذا قالوا، على سبيل المثال: "دعونا نجتمع معًا لدراسة التعليم المسيحيّ، أو لتطوير مبادرة سياسيّة جديدة، أو حتى لدعم نشاط خيريّ، وإنشاء مؤسّسة، وما إلى ذلك"، فإنّ أيًّا من هذه الإجابات ستكون كافية لملأ الانقطاع». ما من شيء أكثر وضوحًا من هذا: «إنّ الاستمرارية مع "ما كان" تنشأ من جديد فقط عند تكرار الحدث نفسه، والوقع نفسه الآن»[8]. لأنّ البداية حدثٌ، دائمًا. ومن أجل ملأ الانقطاع مع البداية، من الضروريّ أن يحدث الآن مرّة أخرى ما حدث حينئذ، يجب أن يحدث نفس الحدث

[8] L. Giussani, «Qualcosa che viene prima», in *Dalla fede il metodo, Tracce-Quaderni 2*, suppl. a *Tracce-Litterae Communionis*, aprile 1994, pp. 42-43.

الذي حرّكنا في البداية.
هذا ما ذكّرنا به البابا فرنسيس في ساحة القدّيس بطرس: «لا يتمّ الحفاظ على الكاريزما داخل زجاجة من الماء المقطّر! [...] لا يمكن أن يتم اختزال دون جوسّاني بمتحف من الذكريات [...]. الولاء للتقاليد – يقول ماهلر – يعني الحفاظ على اضطرام الشعلة»[9].
وحدها إعادة حدث حضور المسيح الآن يمكنها أن تستعيد لنا البداية. فالمسيح هو حدث حاضر. والأمل الوحيد بالنسبة لنا هو معرفة المسيح أكثر، إن كنّا لا نريد أن نفقد الحماسة التي استحوذت علينا. لهذا السبب، ومنذ لقاء بداية العام، ظلّت هذه العبارة تنخزني.

2. في صيرورتنا كبارًا، تغييب الأخلاقيّة

كان دون جوسّاني يقول لنا في أولى رياضات الأخويّة بالضبط إنّ عدوّنا هو «غياب معرفة المسيح». ولكن أيّ نوع من المعرفة هو؟ بما أنّ المعرفة عادةً ما تنحصر بالنسبة إلينا بالمعرفة النظريّة، فإنّ جوسّاني ينبّهنا من أنّه يتحدّث عن المعرفة حسب معناها الوارد في الكتاب المقدّس: «المعرفة كألفة، كانسجام، كتماهٍ، كحضور في القلب». لذلك يلاحظ في وقت لاحق قائلا: «يبدو الأمر كما لو أنّ الألفة التي شعرنا بها [بعد الاجتماع] لم تعد موجودة [...]. فهناك عائقٌ هو بُعدٌ عن المسيح، أشبه بعدم وجودٍ للمسيح، بشيء لا يحسمه القلب. ليس الأمر كذلك في الأفعال، ففيها يمكنه أن يكون حاسمًا – نذهب إلى الكنيسة، وننشط في الحركة، ربّما نتلو صلاة الليل، ونتابع مدرسة الجماعة، ونجهد بالعمل الخيريّ، ونذهب إلى تأسيس مجموعات هنا وهناك، وننطلق ونتسلل أيضًا إلى السياسة. إنّه لا ينقص في الأعمال: قد يكون حاسمًا في الكثير من الأفعال، ولكن ماذا عنه في القلب؟ في القلب، لا! لأنّ القلب هو كيف ينظر المرء إلى أطفاله، كيف ينظر المرء إلى زوجته أو المرأة إلى زوجها، كيف ينظر إلى المارّة، كيف ينظر إلى أعضاء الجماعة أو زملاء العمل، أو – وخاصّة – كيف يستيقظ في الصباح»[10].
ليس هذا فحسب. فبُعد المسيح عن القلب «يشرح بُعدًا آخر أيضًا، يظهر أيضًا في

[9] Francesco, *Discorso al movimento di Comunione e Liberazione*, 7 marzo 2015.
[10] L. Giussani, *Una strana compagnia*, op. cit., pp. 22-24.

عائق في العلاقات بيننا، في النظرة بيننا، لأنّ المسيح وحده [...] هو من يمكنه أن يجعلنا أشقاء حقّا»[11]، يا أصدقاء! كم من المرّات تحدّثنا عن ذلك واختبرناه في حياتنا: إنّ بُعد قلب المسيح يصبح بُعدًا عن بعضنا البعض، بحيث أنّ غرابة متبادلة تسيطر في ما بيننا.

فيسوع يمكنه أن يكون بعيدًا كلّ البُعد عن قلبنا لدرجة أنّه يصبح أشبه بالغريب بالنسبة لنا: «لو جاء يسوع إلى هنا في صمت – *softly* – وجلس على كرسيّ هناك، بالقرب من تلك السيّدة، وانتبهنا كلّنا ذلك في وقتٍ ما، فإنّني لا أدري كم منّا ستكون دهشتهم وامتنانهم وفرحهم ... لا أدري كم شخصًا ستكون مودّته عفويّة حقًا، مع حفاظه على وعي ذاتيّ معيّن. [...] لا أدري ما إذا كنّا لن نشعر بغشاء من الخجل والعار [...]، إذا أدركنا في تلك اللحظة أنّنا لم نقل أبدًا "أنتَ" [...]، إذا حاولنا أن نعيش بشكل جادّ الغرق غير الكامل لأناه الذاتيّة في أنانا الجماعيّة»[12]. دعونا نسأل أنفسنا: من منّا اليوم قال "أنتَ" للمسيح، بتلك الألفة التي يعامل بها الوجوه العزيزة عليه حقًّا؟

لا أعني أنّ المسيح ليس معروفًا في حياتنا، فلنكن واضحين. «من المفارقة– أصرّ – [يتابع دون جوسّاني] أنّ المسيح هو بالتحديد السببُ الذي يدفعنا إلى عيش طريقة حياة لم نكن لنعيشها من دونه، ومع ذلك فهو بعيدٌ عن قلبنا!» ففي صيرورتنا كبارًا، بالغين، وعلى الرغم من قيامنا بأشياء كثيرة للحركة أو باسم الحركة، بقي المسيح بعيدًا عن قلبنا، وربّما لم يدخل بَعدُ إلى قلبنا. «أنا لا أحسب [يواصل دون جوسّاني] أنّها سمة طبيعيّة إحصائيّا أنّ صيرورتنا كبارًا قد جعلت المسيح أكثر ألفة لنا، قد جعل حضورًا أكبر ذلك الغيابُ العظيم [...]. لا أعتقد ذلك»[13].

وماذا يحدث إن لم تجعل صيرورتنا كبارًا المسيح أكثر ألفة؟ يحلّ فينا شعورٌ بالإحباط، «لا بالمعنى العاديّ للكلمة، بل مقارنة بتلك الألفة مع الله التي يكمن فيها جوهر حياة الإنسان»[14]. لذلك، إذا كانت الـ moralità الأخلاقيّة «توقًا إلى شيء أعظم منّا، فإنّ الـ demoralizzazione تعني تغييب هذا التوق. أنا أصرّ على أنّ ذلك التوق يستيقظ في الكلام وفي الأعمال أيضًا – وذلك ليس زورًا، بل بصدق أيضًا –، لكنّه ليس في نهاية المطاف داخل القلب. لأنّ ما هو في نهاية المطاف في

[11] *Ibidem*, p. 24.

[12] L. Giussani, *L'attrattiva Gesù*, Bur, Milano 1999, p. 151.

[13] L. Giussani, *Una strana compagnia*, op. cit., pp. 24-25.

[14] *Ibidem*, p. 30.

القلب [...] لا ساعات ولا شروط تمنعه [...]. وكما لا يمكن للأنا تعليق عيشها، كذلك عندما يكون القلب أخلاقيّا، عندما لا يتخلّى القلب عن أخلاقيّته، يبدو التوق "للأكثر"، لما هو إضافيّ، كما لو أنّه لا ينقص. ليست هناك من مهلة، يا أصدقائي، لأنّنا هنا بصدد الحديث عن القلب، وليس عن الأعمال. «إنّما تكمن المشكلة في قلوبنا»[15].
كيف بإمكاننا مقاومة هذا التغييب للأخلاقيّة؟ عند هذا الحدّ، يجدّد دون جوسّاني التأكيد على قيمة الصداقة بيننا، على رفقتنا، على أخويّتنا، موضحًا مهمّتها: «يجب على رفقتنا أولًا أن تجعلنا نقاوم هذا التغييب للأخلاقيّة. فهي ستكون الأداة الرئيسيّة ضدّ تغييب الأخلاقيّة»[16].
ولكن كيف يمكنها أن تساعدنا في هذا النضال، بشكل يسمح للمسيح باختراق قلوبنا؟ نحن نرى ذلك بوضوح عند حدوثه.
«عزيزي الأب خوليان، إنّي عائدة لتوّي من "درب الصليب" الذي أقيم الليلة الماضية في كارافادجو، بعد سنوات من نسياني الكليّ للجمعة العظيمة. فطالما احتججت بأنّ عندي عمل، ولذلك تجاوزت بهدوء هذه المناسبة دون أدنى شكّ. لم أشعر حقا بالحاجة إليها. أمّا هذا العام، ولسببٍ ما أجهله، فقد وجدت الوقت وأدركت أنّ المسألة هي عمّا يرتكز قلبي. كان الأمر أشبه بالعودة إلى أصل كلّ شيء. وفي زمن ثلاثيّة الفصح التي كان يقوم بها الطلبة الجامعيّون مع دون جوسّاني في كارافادجو كانت من بين الأشياء التي ألهبتني وأنا في العشرين من عمري. و "طرحني أرضًا" بالأمس أيضًا، ولكن بألم شديد، الاستماع إلى الجوقة وهي تنشد *Cristo al morir tendea* وسؤال مريم الأليم: "أستتركونه لأجل حبّ آخر؟". لقد أدهشني لأنّه لا يقول: إلى الخطيئة أو إلى الشرّ، بل "لأجل حبّ آخر". طرحت هذا الصباح على نفسي أسئلة لم أكن أطرحها منذ عقود أو ربّما لم أقم بطرحها أبدًا. تساءلت عن سبب اقتراح الكنيسة أسبوع الآلام كلّ عام. كم مرّة نقضي هذا الزمن كبادرة لا تغيّر شيئًا فينا، في حياتنا، طالما أنّنا "ندري به" ولا شيء لدينا نقومّه! فننتظر أن يمرّ بسرعة للعودة إلى اهتمامنا بالأمور الملموسة: العمل، يوم قبض المعاش الشهريّ، الزوج، الأطفال، المنزل، السيارة، حفلات أعياد الميلاد، مجموعات الأخويّة (ولكن فيمَ نحن إخوة؟)، عطلات الحركة أو على البحر مع الأصدقاء. وبدلًا من ذلك، تكسر الكنيسة، بما للكلمة من معنى، تكسر الوقت، فتعيد فتح ذلك الجرح الذي هو إنسانيّتي. لأنّك أنت، أكنت صديقا، أو زوجًا، أو زوجة، أو

[15] *Ibidem*, pp. 25-26.
[16] *Ibidem*, p. 26.

ابنًا أو كلّ حركة من حركات قلبي، أنت، يا من أعتبره كلّ شيء بالنسبة لي، لن تعيش إلى الأبد وستخونني وسأخونك وأخون نفسي. أنت، يا من أحبّه بعمق، غير قادر على الوفاء بالوعد الذي أثرته فيّ. فأين أعقد إذن الأمل الذي لا يكفّ القلب عن طلبه؟ هذا ما تقترحه الكنيسة علينا كلّ عام: أن نعيد فتح جروح كلّ يوم، ومن أربعاء الرماد، أن نعترف بأنّنا بحاجة إلى كلّ شيء، لنعود إلى الموقف الأصحّ، التسوّل. فالإجابة لا تعطى لنا، لكنّها تفرض نفسها على قلب متسوّل، ويركض، في فجر جديد، في اليوم الثالث».

ها هي مهمّة رفقتنا. إن كان أقلّ من هذا فلا يستحقّ البقاء فيها. يصرّ دون جوسّاني فيقول «يجب أن تذهب رفقتنا إلى ما هو أعمق وأعمق، ويجب أن تهمّ أنفسنا، يجب أن تهمّ قلبنا»[17]، يجب أن تقودنا – كما تقول مدرسة الجماعة – أن تدفعنا إلى«علاقة عميقة وشخصيّة معه»[18]، مع المسيح.

ولكن عند هذا المستوى، يوضح جوسّاني، على مستوى تعرّفي إليك، أيّها المسيح، أي على مستوى القلب، لا يمكن لأحدٍ أن يفوّض إلى غيره إجابة لا يمكن إلا أن تكون صادرة عنه هو: «إنّها مسؤوليّة [كما تدلّ الرسالة التي قرأناها لتوّنا] [...]،لا يمكن تحميلها للحركة. فالقلب هو الشيء الوحيد الذي يبدو وكأن ليس فيه شركاء [...]. إذا كنت في فريق يلعب فيه كلّ فرد دورًا، فإنّ كلّ شخص يدفع الآخر، وكذلك الأمر بالنسبة للحركة، في أنشطة الحركة. أمّا هنا فلا! لذلك لا بدّ من أنّ حركتنا حركة غريبة: إنّها حركة لا يمكن تحميلها أيّ شيء»[19].

3. المسيح، الأمل في تحقيقه

لماذا يصرّ جوسّاني كثيرًا على الحاجة لأن يخترق المسيحُ قلبنا؟ السبب بسيط: بدون المسيح، يبقى القلب غير راض. وتبيّن لنا التجربة أنّ القلب لا يستطيع الغشّ، لأنّه موضوعيّ ومعصوم. وكما يذكّرنا الفصل الأول من الحسّ الدينيّ، إنّ القلب، كمعيار للحكم، هو موضوعيّ، فالمتطلّبات الأصليّة، في الواقع، نجدها معنا، ولا يمكننا التلاعب بها، وهي أعطيت لنا مع الحياة نفسها. لهذا السبب فإنّ القلب معصوم كمعيار: المتطلّبات الأوّليّة معصومة، لدرجة أنّها تكشف باستمرار الاختزالات

[17] *Ibidem*, pp. 26-27.

[18] L. Giussani, *Perché la Chiesa*, Rizzoli, Milano 2014, p. 246.

[19] L. Giussani, *Una strana compagnia*, op. cit., p. 27.

والصور التي نبنيها حول ما ينبغي أن يروي عطش القلب؛ إنّ الشعور بعدم الرضى الذي نختبره في مواجهة الفوضى الشخصيّة أو العائليّة، وكذلك في مواجهة النجاح المهنيّ، لهو علامة واضحة على ذلك.

في هذا الإصرار من جانب جوسّاني يمكننا أن نجد كلّ تقديره تجاهنا، وشغفه بكلّ واحد منّا. إنّه حقًّا تجسيد لرفقة حقيقيّة، رفقة مَن لا يكفّ أبدًا عن دعوتنا إلى الشيء الوحيد الذي يمكن أن يرضي القلب. فـ «غياب المسيح يدمّر ويُحبط، ويضع الإنسان في شكل ثابت من الاكتئاب. أنّ إمكانيّة أقلّ لحضورك، أيّها المسيح، تعني إنسانيّة أقلّ لقلبي ولقلبك. إمكانيّة أقلّ لحضورك، أيّها المسيح، تعني إنسانيّة أقلّ في علاقة الرجل بزوجته، والمرأة بأولادها، ما ينتج عنه تمديد يحلّ محلّ العاطفة الحقيقيّة، محلّ الحبّ الحقيقيّ، وعمل الخير، ومجّانيّة وهب الذات، ألا وهو الادّعاء [...].إمكانيّة أقلّ لحضورك، أيّها المسيح، تعني فرصة أقلّ من الإنسانيّة لجميع الناس [...] الذين يتجمّعون حولك»[20]، ولنا.

ما هو عكس تغييب القلب لأخلاقيّته وعكس الاكتئاب البشريّ، اللذين يبدو أنهما يميّزان صيرورتنا كبارًا؟ إنّ «عكس تغييب الأخلاقيّة»، وهو ما نحتاجه جميعًا، «هو الأمل». وهذا ما شهدت به صديقتنا أيضًا. إنّ ما يخبرنا به دون جوسّاني يتحقّق منه بشكل مدهش أيُّ شخص يقوم بخبرة إنسانيّة حقيقيّة، ويكون مخلصًا لما يحدث في حياته. ولكن أيّ أمل؟ عن أيّ أمل نتكلّم؟ عن الأمل في مصيرنا، في كمالنا. ولكن كيف يكون ذلك، مع كلّ الأخطاء والفشل والتناقضات التي تتكرّر وتتضاعف وتتراكم؟ «فقط حيث تحدّث الله إلى الإنسان يوجد هذا الأمل»، فمضمون هذا الأمل هو في الواقع ما «قاله الملاك للعذراء: "لا شيء مستحيل عند الله". أعتقد أنّ هذا كلّ شيء. فالإنسان الجديد الذي جاء المسيح إلى صنعه في العالم هو الإنسان الذي يشكّل هذا التأكيد بالنسبة إليه قلبَ الحياة فيه: "لا شيء مستحيل عند الله". حيث الله ليس "إله" أفكارنا، بل هو الإله الحقيقيّ، الإله الحيّ، الذي أصبح إنسانًا، المسيح»[21].

يذكّرنا الكتاب المقدّس: «ها إنّي أنا الربّ، إله كلّ ذي جسدٍ؛ أعليّ أمرٌ عسير؟»[22] «"لا شيء مستحيل عند الله"! هذه العبارة إذن هي في بداية التاريخ الحقيقيّ للبشريّة،

---

[20] L. Giussani, *Si può vivere così*. Esercizi Spirituali della Fraternità di Comunione e Liberazione, Rimini 28-30 aprile 1995, suppl. a *Litterae Communionis-Tracce*, n. 6, 1995, p. 22.

[21] L. Giussani, *Una strana compagnia*, op. cit., p. 28.

[22] سفر إرميا 32، 27.

وهي في بدايات النبوّة العظيمة لشعب إسرائيل، وهي في بداية تاريخ الشعب الجديد، العالم الجديد، في بشارة الملاك للعذراء، وهو في بداية زهد الإنسان الجديد، وفي بداية منظور الإنسان الجديد وتحرّكه. [...] أمام جملة المسيح: "من الأسهل على الجمل أن يمرّ عبر ثقب الإبرة، من أن يدخل غنيّ ملكوت السماواتر، قال الرسل،: رولكن من يستطيع أن يدخل ملكوت السماوات؟ من يمكنه أن يخلص؟ لقد كانوا شديدي الفقر، والأشياء القليلة التي يملكونها كانوا قد تركوها. أجاب يسوع: "إنّه مستحيل بالنسبة لكم، ولكن عند الله لا شيء بمستحيل"»[23].

هذا هو أساس الأمل، وأساس إمكانيّة التخلّص من تغييب الأخلاقيّة، ونقص توق القلب نحو ما صُنع من أجله: الله أصبح إنسانًا، المسيحَ. «لقد دخل إنسان جديد العالم، ودخل معه طريق جديد»[24]: لقد أصبح المستحيل ممكنا. هذا ما يشير إليه منشور عيد الفصح على نحو مؤثر: «منذ اليوم الذي هرع فيه بطرس ويوحنا إلى القبر الفارغ ورأوه بعدها قائمًا من الموت وحيًّا وسطهما، بإمكان أيّ شيء أن يتغيّر. مذّاك وإلى الأبد يمكن للإنسان أن يتغيّر، أن يحيا، أن يعود إلى الحياة. إنّ حضور يسوع الناصريّ أشبه باللمف الذي يُعيد النضارة – بشكل غامض ولكن أكيد – إلى قحولتنا ويجعل المستحيل ممكنًا، فما هو مستحيل لدينا ليس مستحيلا عند الله. وهكذا فإنّ من له عينٌ وقلبٌ صادقان يمكنه أن يرى بشائر إنسانيّةٍ جديدة من خلال رفقة أولئك الذين يعترفون بحضوره، بالله معنا. بشائر إنسانيّةٍ، جديدة، أشبه بعودة النضارة إلى الطبيعة المُرّة القاحلة»[25].

أيّها الأصدقاء، يجب أن نسأل الروح القدس عن بساطة التعرّف إلى المسيح، وبساطة «رفع نظرنا من ذواتنا إلى ذلك الحضور»[26] الذي جاء لملاقاتنا، وتركه يخترق قلوبنا، مثل فجر يوم جديد.

إنّ ما نحتاجه هو مجرّد بساطة. «كلّ شيء يعود إلى امتلاك قلب طفل». ماذا يعني هذا؟ «رفع نظرنا عن مشكلاتنا، عن مشاريعنا، عن عيوبنا وعن عيوب الآخرين، كي ننظر إلى المسيح القائم. "التحديق بهذا الحضور". يبدو الأمر كما لو أنّ ريحًا ستمرّ وتنتزع منّا كلّ ما نحن عليه؛ وعندها يصبح القلب أو يصبح من جديد حرًا، ويستمرّ في العيش في الجسد، أي إنّه يخطئ كما كان من قبل [...]، ولكن يبدو وكأنّ

---

[23] L. Giussani, *Una strana compagnia*, op. cit., p. 29.

[24] *Ibidem*, p. 34.

[25] لويجي جوساني، شراكة وتحرّر، منشور عيد الفصح لعام 2018.

[26] L. Giussani, *Una strana compagnia*, op. cit., p. 35.

شيئًا آخر قد دخل العالم. دخل إنسان جديد إلى العالم، ودخل معه طريق جديد. "ها إنّ طريقًا فُتح في الصحراء: ألا ترونها؟" في صحراء العالم تنفتح طريق، أي تنفتح إمكانيّة القيام بـ "أعمال"، ولكن قبل كلّ شيء القيام بعمل محدّد. فـ"الأعمال" تعبير عن الإنسان؛ أمّا "العمل" فهو إنسان جديد، رفقة إنسانيّة جديدة»[27].

لا توجد إمكانيّة أخرى لاستعادة حماسة البداية التي ربّما نكون فقدناها خلال عيشنا: «بدون هذه البساطة، بدون هذا الفقر، من دون قدرتنا على رفع نظرنا من أنفسنا إلى ذلك الحضور، من المستحيل قيام رفقة تنفض عنها ذلك العائق، [...] وتصبح حقّا عونًا في المسيرة نحو المصير [...]. من الضروريّ أن أرفع نظري من نفسي إلى ذلك الحضور، إلى حضور المسيح القائم من بين الأموات»[28]. إنّ رفع نظرنا من أنفسنا لتحويله إلى حضوره هو الفرصة الوحيدة لنعيش حياتنا من خلال كسبها ولإنقاذ الرفقة، متغلّبين على العائق الموجود بيننا الذي تحدّث عنه دون جوسّاني. وحده المسيح قادرٌ على الاستجابة للتطلّع الذي جلبنا إلى هنا، كما يكتب أحدكم: «أنا في انتظار الرياضة كما لم يحدث لي في حياتي!»، على حدّ تعبير إحدى الرسائل العديدة التي وصلتنا، محمّلة بهذا التطلع.

في ذروة أزمة عام 1968، قال جوسّاني لأصدقائه بمركز شارل بيغي: «من الضروريّ أن تنتهي فترة وتبدأ أخرى: فترة نهائيّة، ناضجة، فترة يمكنها أن تتلقّى صدمة الزمن، بل صدمة التاريخ كلّه، لأنّ تلك البشارة التي بدأت بصدم شخصين (الفصل الأوّل من القدّيس يوحنا)، يوحنا وأندراوس، قبل ألفي سنة، تلك البشارة، ذلك الشخص هو نفس الظاهرة التي جذبتنا إلى هنا وهي الظاهرة التي يمكنها أن تجعلنا نبقى في كنيسة الله»[29].

فلنطلب من المسيح أن يجعل قلوبنا تهتزّ من المودّة له في هذه الأيّام، فهذه هي الإمكانيّة الوحيدة لمعرفته حقّا، بطريقة لا تكون نظريّة أو فكريّة. دعونا نتماهى مع الدعاء الذي استعاره دون جوسّاني من الـ *Stabat Mater* المنسوب إلى "ياكوبوني من تودي"، خلال تعليقه على النسخة الموسيقيّة لدفوراك: Fac ut ardeat cor meum in amando Christum Deum ut sibi complaceam (اجعل قلبي يضطرم حبّا بالمسيح الإله حتى يعجبه. «دع كلّ شيء يضطرم بي! كلّ شيء، كلّ شيء حتى آخر شعرة. دع كلّ شيء يضطرم بي، أنا غير المستحقّ، ولكن المخلوق

[27] *Ibidem*, pp. 34-35.

[28] *Ibidem*, p. 35.

[29] L. Giussani in A. Savorana, *Vita di don Giussani*, op. cit., p. 413.

للتسبيح: "أعبدك، إيّها المخلّص". يا للحرّيّة، يا لحرارة التعرّف!»[30]
كما رأيتم عند دخول القاعة، لقد قرّرنا هذا العام أن نقترح عند كلّ دخول اقتباسًا قصيرًا لدون جوسّاني حول المقطع الموسيقيّ الذي نستمع إليه، كوسيلة تساعدنا على التماهي أكثر مع ما يحدث. والمقاطع الموسيقيّة التي نقترحها، كما تعلمون، ليست عشوائيّة، فقد عرّفنا دون جوسّاني بها واحدًا بعد الآخر مع مرور الوقت بسبب قدرتها على تسهيل التزامنا بالصمت. مَن نظر إلى رسومات كارافادجو عند استماعه إلى *Fac ut ardeat* قد اختبره ذلك. لن يكون الأمر على هذه الحال إذا كنّا شاردي الذهن أو بصدد استخدام الهاتف بدلا من الانسياق إلى ما هو أمامنا، فإعارة الانتباه هي من أجل عدم الحدّ من مدى ما يحدث الآن.
لنأخذ على سبيل المثال ما أخبرنا به دون جوسّاني عن عمل قام به موزارت، هو "القدّاس العظيم بمقام دو مينور"، والذي كثيرًا ما استمعنا إليه أثناء نشاطاتنا: «هذه الترنيمة الجميلة تساعدنا على الخشوع في صمتٍ ممتنّ، فتولد أو تنبت في القلب زهرة الـ "نعم" فيستطيع الإنسان أن يعمل، وأن يصبح معاونًا للخالق [...]: عاشقًا للخالق. كما كان الحال بالنسبة للسيّدة العذراء [...] حيث ملأت علاقة لا حدود لها قلبها ووقتها. إذا اخترق العمق الدينيّ لموسيقى موزارت، وهي عبقريّة وهبها الروح القدس، قلوبنا، وحياتنا، بكلّ ما فيها من توتّرات وتناقضات وأتعاب، فسوف يكون جميلا كموسيقاه»[31].
أودّ معكم أن أدع موهبة عيش الصمت تربّيني بشكل متزايد، هذا الصمت بالتحديد، الذي يعني أن «تملأ قلبنا وعقلنا أهمُّ الأشياء»، والحضور الأكثر حسمًا في الحياة. «يتطابق الصمت [...] مع ما نسمّيه بالذاكرة». في هذه الأيّام التي سنعيش فيها سويّة، «ستستفيد الذاكرة من الموسيقى التي سنسمعها ومن اللوحات التي سنشاهدها [على الشاشات] ؛ فنتهيّأ لننظر، ونستمع، ونشعر بعقلنا وقلبنا ما يقترحه الله علينا بطريقة ما»[32]، لكي نترك الربّ يجرّنا ويتسحوذ علينا.

---

[30] L. Giussani, «La festa della fede», in *Spirto Gentil. Un invito all'ascolto della grande musica guidati da Luigi Giussani*, a cura di S. Chierici e S. Giampaolo, Bur, Milano 2011, p. 289.

[31] L. Giussani, «Il divino incarnato», in *Spirto Gentil…*, op. cit., p. 55.

[32] L. Giussani, *Dare la vita per l'opera di un Altro*, Esercizi Spirituali della Fraternità di Comunione e Liberazione, Rimini 8-10 maggio 1992; suppl. a *CL-Litterae Communionis*, n. 6, 1992, p. 5.

إنّ جميع المحاولات التي نقوم بها – اختيار موسيقى وأغانٍ وصور معيّنة – تهدف إلى تعلّم كيفية ترك مساحة لشخصٍ آخر، وهو السبب الكبير الوحيد الذي جلبنا إلى هنا اليوم.
ولذلك أوصيكم بأن تولوا اهتمامًا خاصّا بالصمت في هذه الأيّام، عند الانتقال من الفنادق وعند الدخول والخروج من القاعات. إنّ البادرة التي سنعيشها تعتمد على مساهمة كلّ واحدٍ منا، لذلك أطلب من أجلي ومن أجلنا جميعًا ألا نضيّع هذه الفرصة.

القدّاس الإلـهيّ

قراءات الليتورجيا: أعمال الرسل 13، 26-33، المزمور 2، يوحنا 14، 1-6

عظة دون ستيفانو ألبيرتي

في ذلك المساء الذي وهب فيه ذاته، جسده كطعام ودمه كشراب، مستبقًا بذلك تضحية موته الكاملة ومجد قيامته، يلتقي يسوع بالمقاومة، وبتغييب المعنويّات، وبغرابة أحبّائه. لكنّه يستخدم سؤال توما – «يا ربّ، لا نعرف إلى أين أنت ذاهب ؛ فكيف يمكننا أن نعرف الطريق؟» – لكي يقدّم صورة رائعة ومبهرة وحاسمة عن حنانه، وعن شغفه بمصير الإنسان. فهو يقول، بالطبع، «أنا الحقّ»، كما يقول: «أنا الحياة»، لكنّه يقول أوّلا – وهو ما لم يقله أحدٌ قطّ، وما كان لأحد أن يقوله من بعده: «أنا الطريق»، وهو ما يعني:« أنا مبادرة الشراكة هذه، وهذا الحضور المليء بالشغف بمصيرك. لستُ الطريق فحسب، بل أنا رفقة طوال الطريق، وفي كلّ خطوة من المسير». هذا ما يحدث هذه الليلة، في هذه اللحظة، بعد واحد وعشرين قرنًا. «هأَنَذَا صَانِعٌ أَمْرًا جَدِيدًا. أَلاَ تَعْرِفُونَهُ؟»

السبت 28 نيسان/أبريل صباحًا

عند الدخول والخروج:
فولفغانغ أماديوس موزارت، القدّاس العظيم بمقام دو مينور، ك 427
هربرت فون كارايان – أوركسترا برلين
"سبيريتو جنتيل" 24، دويتشي غراموفون

السلام الملائكيّ
صلاة الصبح

التأمّل الأوّل
خوليان كارّون

«ونحن قد عرفنا و آمنّا بالمحبّة التي عند الله لنا!»

هناك «رحلة»[33] يتعيّن علينا القيام بها للوصول الى معرفة المسيح بالمعنى الكتابيّ للكلمة – كما يقول دون جوسّاني – إن لم نكن نرغب بالبقاء عالقين بالعائق الناجم عن بُعد قلوبنا عنه.
دعونا نقول على الفور ما هو المنظور الذي يضعه يسوع نصب أعيننا. إلى أين يريد أن يأخذنا؟ لقد سمعناه في صلاة صلاة "افرحي يا ملكة السماء" يوم الأحد الماضي: «أَعرِفُ خِرافي وخِرافي تَعرِفُني كَما أَنَّ أَبي يَعرِفُني وأَنا أَعرِفُ أَبي»[34]. لقد قال البابا فرنسيس تعليقا على هذه الكلمات: «لا يتكلّم يسوع عن معرفة فكريّة، كلا، إنما عن علاقة شخصيّة، عن ولع ومحبّة متبادلة، انعكاس لنفس علاقة المحبّة الوثيقة التي تجمعه بالآب»[35]. أقلّ من هذا ليس معرفة بالمسيح ولا بالآب. يريد يسوع أن يجلبنا، نحن خرافه، إلى نفس المعرفة، إلى نفس المستوى من الحميميّة التي يمتلكها، هو الراعي، مع الآب. هذا هو الغرض.
ما هو المسار الذي يستخدمه السرّ الإلهيّ ليقودنا إلى هذه المعرفة؟ «الله هو الكلّ في الكلّ»، الربّ هو كلّ شيء، كما ذكّرنا دون جوسّاني مرّات عديدة. "إنّ الرب ليس

---

[33] C. Chieffo, «Il viaggio», in *Canti*, Società Coop. Ed. Nuovo Mondo, Milano 2014, pp. 232-233.

[34] يوحنا 10، 14-15.

[35] البابا فرنسيس، صلاة افرحي يا ملكة السماوات (ريجينا تشيلي) 22 نيسان / أبريل 2018.

كلّ شيء بحكم شعور من مشاعرنا، أي لأنّنا "نشعر" بأنّه كلّ شيء؛ ولا بحكم فعل إرادة، أي لأنّنا "قرّرنا" أنّه كلّ شيء؛ ولا لسبب أخلاقيّ، أي لأنّه "يجب" أن يكون كلّ شيء، بل لطبيعته»[36]. هذه هي الحقيقة، وهي كذلك منذ البداية. وهي أمر بديهيّ ولا تعتمد على شعورنا وإرادتنا وقرارنا. لكنّها تطلب أن يكتشفها الإنسان، ويعرفها بالمعنى الذي ذكرناه، حتى تتمكّن من صياغة الحياة. كيف يمكنها إذن أن تخترق القلب؟ بحدوثها فقط.

هذا هو شرط المعرفة بالمعنى البيبليّ للمصطلح: حدث. أن يكون الربّ هو الربّ، أن يكون الله هو كلّ شيء بالنسبة للإنسان، وأنّه على دراية بحياة مخلوقاته، لم يصبح واضحًا بحكم تأمّل، بحكم إنجاز "للمعرفة"، بل من خلال طريقة أخرى تعكس الاتجاه: يكشف الله أنّه ربّ الإنسان عبر التاريخ، في تدخّله فيه. يكتب دون جوسّاني: «حقيقة أنّ الربّ هو كلّ شيء بطبيعته [...] لم تظهر كثمرة للحكمة، ولم يأتِ من تفكير فلسفيّ. أن يكون الربّ هو الربّ [...] أصبح واضحًا ضمن تدخّلٍ له في التاريخ، من خلال كشفه عن ذاته في التاريخ"[37].

إنّ التاريخ التوراتيّ – وهو تاريخ دقيق ومحدّد، يتكوّن من حقائق وكلمات دقيقة – هو وثيقة هذا الكشف لله عن ذاته، فتصبح الحقيقة التاريخيّة البُعدَ الأساسيّ لتواصل الله معنا، وهو نفس ما حدث لنا، ضمن هذه "القصّة المحدّدة" التي هي الحركة.

اسمعوا كيف يتذكر جوسّاني بدايتها، لدرجة أنّه يحدّد بدقّة الساعة: «أتذكرّها كما لو كان اليوم: ثانويّة بيرشيه الكلاسيكيّة، الساعة 9 صباحًا، اليوم الدراسيّ الأوّل، تشرين الأوّل/أكتوبر 1954. أتذكّر الشعور الذي انتابني وأنا أصعد الدرجات القليلة لمدخل المدرسة: كانت براءة الحماسة، براءة الجرأة [...]. أرى نفسي في تلك اللحظة، وقلبي منتفخ بفكرة أنّ المسيح هو كلّ شيء لحياة الإنسان، إنّه قلب حياة الإنسان: هذه البشارة كان على هؤلاء الشباب أن يبدأوا بالاستماع إليها وتعلّمها، من أجل سعادتهم. [...] أقول هذه الأشياء لأنّها تشكّل السبب الوحيد، والغرض الوحيد والجذر الوحيد الذي نشأت منه حركتنا. وإذا كانت حركتنا قد عاشت لحظات من التشويش أو السطحيّة أو الالتهاء فهذا يرجع حصرًا إلى حقيقة أنّها وهنت أو نسيت هذا الموضوع الوحيد لكلّ جهدنا ولكامل مبادرتنا. حماسة كبيرة، إذن"[38].

---

[36] L. Giussani, *Alla ricerca del volto umano*, Rizzoli, Milano 1995, p. 22.

[37] L. Giussani, *Alla ricerca del volto umano*, Rizzoli, Milano 1995, p. 22.

[38] L. Giussani, *Un avvenimento di vita, cioè una storia*, a cura di C. Di Martino, EDIT-Il Sabato, Roma 1993, pp. 336, 338.

في بداية هذه القصّة المحدّدة يكمن أسلوب كلّ لحظة من لحظات المسيرة التالية. ولكن، على وجه التحديد، كون الحقيقة قد أبانت عن نفسها وفقًا لهذه الطريقة – كشف للذات في التاريخ – فهي قد تفقد في التاريخ وضوحها وإشعاعها، يمكنها أن تهن أو تُنسى. لقد ذكر لنا البابا بنديكتوس السادس عشر في رسالته العامّة "بالرجاء مخلّصون" (Spe salvi) سبب هذا الأمر: «إنّ التقدّم الذي يقبل الإضافة ليس ممكنًا إلا في الحقل المادّي. [...] على العكس من ذلك، في مجال الوعي الأخلاقيّ والقرار الخُلقي، لا توجد إمكانيّة مماثلة للإضافة إذ إنّ حرّية الإنسان هي دومًا جديدة [...] ويجب أن نكتسبها دائمًا من جديد في سبيل الخير. فالتمَّسك الحرّ بالخير لا يوجد أبدًا ببساطة وبحدّ ذاته»[39].

مَن، أمام انحطاطه، في أكثر اللحظات وضوحًا لا يتفاجأ في نفسه بالرغبة في أن يُؤخَذ مرّة أخرى؟ كيف يمكن أن يحدث هذا؟ للإجابة، لا شيء يمكن أن يساعدنا أكثر من تماهينا مع الله، مع لهفة الله، التي تريد أن تجذبنا كيلا تضيع حياة أيّ واحد منّا والتي استخدمت كلّ ظرف من ظروف تاريخ شعبه لتعرّف عن نفسها أكثر وأكثر . لذلك دعونا نعود إلى البداية، لنتعلّم مرّة أخرى ما كنّا نعتقد أنّنا عرفناه من قبل. لم أتمكّن من إعادة قراءة صفحات فون بالتازار، في كتابه "التزام المسيحيّ في العالم"[40]، والذي أعيد طبعه مؤخّرًا من دون أن أضع في الاعتبار الحاجة الملحّة لهذه العودة إلى الأصول. ولعلّ إدراكنا، المكتسَب في مناسبات عديدة، بأنّه لا يكفي أن نعرف أو أن نختبر شيئًا في وقت معيّن ليبقى موجودًا، سوف يجعلنا أكثر استعدادًا، وأكثر يقظة لنترك أنفسنا تتفاجأ بكيف فعل الله الأشياء وما زال.

1. البداية: فعل اصطفاء

«جميع الشعوب القديمة لها آلهتها لكنّ إله إسرائيل يتميّز عن غيره بحقيقة أنّه، قبلها جميعًا، خلق بفعل اصطفاء، فريد من نوعه، [...] الشعب الذي يعبده. [...] ففي بداية كلّ شيء تكمن أوّلا المبادرة الإلهية الحرّة [...]."لقد رضي الربّ عنكم واختاركم، ليس لأنكم كنتم شعبًا أكبر من جميع الشعوب الأخرى [...]، بل لأنّ الربّ

[39] البابا بنديكتوس السادس عشر في رسالته العامّة "بالرجاء مخلّصون"، 24.

[40] H.U. von Balthasar - L. Giussani, *L'impegno del cristiano nel mondo*, Jaca Book, Milano 2017.

يحبّكم"»[41].
إنّنا نتمكّن من معرفة الله من خلال خبرة اختياره لنا. وهو ما يوضحه حوار موسى مع الله: «أنت قد قلت [وهنا يتوجّه موسى بالكلام إلى الله]: "إنّي عرفتك بالاسم، وأصبتَ نعمة في عينيّ". والآن، إذا كنتُ قد أصبتُ فعلا نعمة في عينيك، فأرني طريقك، حتى أتمكّن من معرفتك وأجد نعمة في عينيك»[42].
أن نعرف يعني أن نجد نعمة في عينيه، ونكون مفضَّلين عنده. «وقال لها الملاك: "لا تخافي يا مريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله"»[43]. إنّ الأفضليّة، إنّ المبادرة التي يأخذها الله، وليس قدرة الإنسان، هي ما يؤسّس لإمكانيّة معرفته ومعرفة أنفسنا. وكلّ واحد منا، وجه كلّ واحد منّا «هو» هذا التفضيل، هذه اللفتة الفريدة من الأفضليّة.
كما يقول فون بالتازار، «إنّ الحبّ الذي يعطيني الله إيّاه يجعلني ما أنا عليه في الواقع وبشكل نهائيّ، فهو يحدّد ذلك الأنا الذي يريد الله أن يراه أمامه، ويكون له، موجّهًا صوبه. إنّ الحبّ الذي يختار يجعل "الموضوع" أو "الفرد" الغامض الذي هو الإنسان إنسانًا غير قابل للتكرار. إنّ الله فريد على الإطلاق، وفي حين يمنحني حبّه الذي يختاره، فإنّه يجعلني أنا أيضًا فريدًا في هذا الشعاع"[44]. يا له من انطباع لدى سماعنا هذه الأشياء!
«إنّ الخيار الحرّ ومبادرة الله تبقيان [لذلك] الشكل الملموس الذي تتجلّى فيهما النعمة بين البشر. قد يعتقد المرء أنّ هذا العمل السياديّ غير المبرر للربّ يجعله بمثابة سلطة سيادية اعتباطيّة وبالتالي يحطّ من قدر الإنسان إلى خادم محكوم عليه بالطاعة فقط، لكنّ الخيار الحرّ لا يمثل في المقام الأوّل دليلا على القوّة بل على الحبّ». إنّ الهدف من نعمته ليس جعل الإنسان عبدًا لسلطةٍ جديدة، بل تحريره. «عمل الله هو تحريري. أن يكون قد حرّرني من بيت عبوديّة مصر لا يمكن أن يهدف إلى قيادتي إلى عبوديّة جديدة، إلى الخضوع ليهوه، بل فقط أن يقودني، من خلال اتّباع الله الحرّ، إلى حرّيّتي [...]. أساس الاصطفاء: يجب أن تتوافق حرّيّة الله مع الهدف من الاصطفاء وهو المشاركة في حرّيّة الله ذاتها»[45].
كيف يمكن للإنسان – كلّ واحد منّا – أن يتأكّد ممّا إذا كانت هذه الكلمات منطوقة

---

[41] H.U. von Balthasar, «Significato dell'antica Alleanza», in *ibidem*, p. 31.
[42] سفر الخروج 33، 12-13.
[43] لوقا 1، 30.
[44] H.U. von Balthasar, «Significato dell'antica Alleanza», in *Ibidem*, p. 38.
[45] *Ibidem*, p. 32.

عبثا أو ما إذا كان صحيحًا أنّ غرض مبادرة الله هو تحريره؟ إنّ الجواب على هذا السؤال يميّز كشف الله عن نفسه في التاريخ: إنّ التحقّق من وعد الله بالتحرير هو مشاركتنا في حرّيّة الله ذاتها. أنا أعلم أنّني أعرف الله لأنّه يجعلني حرًّا. ولكن بشرط واحد: تقبّله. لا بدّ من جوابي، قبولي لتفضيله، لأنّ تحريري لا يمكن أن يكون من دوني. لتحريري، يحتاج الله إلى حرّيّتي. «إذا كان واقع اختيار الله هو في المقام الأوّل حبًّا لا يُسبر غوره، فإنّ الجواب الذي يتوقّعه، لا بل الذي يحتاجه، هو [...] "نعم" يتبع ويطيع بانقياد واستعداد، [...] للردّ بالمثل بامتنان على الحبّ». فقط إذا تبع الشعب الاختيار سيشهد تحقيق بالوعد: «إنّ الله سيقود الشعب إلى خارج مصر، ويسمح له بقطع البحر، ويُغرق المطاردين، ويطعمه ويسقيه بشكل عجائبيّ في الصحراء. وسوف يمرّ مثل سحابة من النار والدخان، للإشارة إلى المراحل: فحيث ومتى توقفت السحابة، هناك يجب أن ينصب خيامه. ومتى انتقلت سيتعيّن عليه إزالة الخيام ومواصلة السير لاتّباع الله». لا يمكن تصوّر قلب هذين العاملين أو عكسهما في مرحلة ما، و"أن يأخذ إسرائيل زمام المبادرة فيمشي الله وراء الشعب. فالسلاسة والتفاهم مع طرق الله الذي يختار هما الصفتان الأوليان المطلوبتان من إسرائيل. [...] وكلّ الطاعة هي تربية على هذه الحرّيّة. "كونوا قدّيسين كما إنيّ أنا قدّوس"، إذا ما فهمناه حقّ الفهم [...] يعني: "كونوا أحرارًا كما إنّي حرّ"». أن نكون قدّيسين، أن نكون أحرارًا يعني إذن «أن نضع ثقتنا بحرّيّةٍ بحرّيّةِ الله»[46]. إنّه الشرط الذي يطلبه الربّ كي نكون أحرارًا حقًّا.

لكنّ هذا يعني ضمنًا، كما يلاحظ فون بالتازار، أنّ البداية لا يمكن أن تصبح «أبدًا من الماضي». فالبداية هي «المصدر الذي لا يستطيع المرء الابتعاد عنه. حتى من بعد، بعد فترة وجيزة، عندما تكون هناك عواقب، لا يمكن نسيان المقدّمة المنطقيّة ولو للحظة واحدة. فحرّيّتنا لا يمكن فصلها عن كوننا نُحرَّر»[47].

إنّ حرّيّتنا لا يمكن فصلها عن كوننا نُحرَّر باستمرار، بالأمس واليوم: «عزيزي كارّون، لقد اجتزت لتوّي فترة معقدة. كانت هناك لحظة اعتقدت فيها أن اتّباع المسيح لم يعد ضروريًّا، فابتعدتُ وأنا أظنّ أنّ شيئًا لن يتغيّر في نهاية المطاف. ولكن بعد ذلك بدأتُ أعيش بشكل سيّئ، وكان كلّ شيء غير كافٍ. ولاحظت بالطبع كلّ هذا الشعور بالضيق والحزن، لكنّني كنت أخشى الاعتراف بذلك. كنت أخشى أن أعترف بأنّي في النهاية أريد فقط أن أشعر به في حياتي، أحتاج إليه لأقبل الظروف التي

[46] *Ibidem*, pp. 32-33.

[47] *Ibidem*, p.33.

يجب قبولها فقط. أنا لا أتحدّث عن قبول مستسلم بالواقع. أتحدّث إليك عن طريقة جديدة للتعامل مع الظروف الجديدة. وهكذا استسلمت، عدت وبدأت أعيش مرّة أخرى. إذا كانت هذه الرفقة مفقودة، إذا فُقد المسيح الحاضر، فمن المستحيل العيش». في ابتعادنا عنه، تخرب حياتنا.

في اللحظة التي نمتلك فيها حرّيّتنا، متناسين أنّها تُعطى لنا لحظة بلحظة، نفقدها، إذ لا يمكن فصلها عن كوننا نُحرَّر. هذا ما يجب ألا ننساه أبدًا. «وإذا أدخلك الربّ إلهك الأرض التي أقسم لآبائك [...] فاحذر أن تنسى الربّ الذي أخرجك من أرض مصر، من دار العبوديّة»[48]. إنّ كلّ غرض الله التربويّ هو على وجه التحديد قيادة الشعب إلى هذا الوعي: إنّ حرّيّتنا لا يمكن فصلها عن كوننا نُحرَّر باستمرار؛ لذا لا يمكن أبدًا الابتعاد عن هذا المصدر، الذي هو عمل الله، وتفضيله، وحضوره. كم سيتغيّر كلّ شيء، إذا كان لدينا وعي بذلك!

وإذا لم نفهم نهج الله، إذا لم نعترف بالعلاقة ما بين خبرة حرّيّتنا ومبادرته، فسوف نبتعد حتمًا عن المصدر. كيف؟ أن نراه أمرًا مسلّمًا به، ونتعامل معه كشيء نعرفه من قبل. ولكن ما نفع ما هو معروف أمام الظروف التي تضغط علينا؟ ومع ذلك، فإننا ندرك أنّ إغراء كانط هو أيضًا إغراء لنا: الابتعاد عن المصدر، واختزال الحياة المسيحيّة إلى عقيدة جامدة أو إلى أخلاقيّات[49]. لكنّ الحياة المسيحيّة هي دائمًا عبارة عن هديّة مجانيّة، حرّة، من الله لنا، وتنبع دائمًا من جديد من مبادرته الحاليّة، من حدوثه مرّة أخرى الآن، في حين أنّ الابتعاد عن هذا المصدر، واختزاله إلى ما في عقولنا، وإلى تفسيراتنا، يعني العودة إلى العبوديّة، طوعًا أو كرهًا. لهذا، وكما قلنا أمس نقلا عن دون جوسّاني، الخطأ الأساسيّ يكمن في اعتبار الإيمان أمرًا مفروغًا منه، واعتبار منبع كلّ جديد نختبره في الحياة أمرًا مفروغًا منه.

يستسلم شعب إسرائيل أيضًا لهذا الإغراء باستمرار. فبدلا من اتّباع الله الذي يعمل في الوقت الحاضر، واتّباع ما يشيره الله عليه، قرّر أن يتدبّر أمره بنفسه. من العزاء أن نرى أنّه كان على شعب إسرائيل، مثلنا، أن يتعلّم نهج الله، خطوة خطوة، ساقطا باستمرار. وقصّة الملك شاول جليّة في هذا الأمر، حيث امتلكه الخوف تمامًا من

---

48 راجع سفر تثنية الاشتراع 6، 10-12.

49 «قد يعتقد المرء بأمان أنّه لو لم يعلّم الإنجيل القوانين الأخلاقية العالميّة بنقاوة كاملة، فإنّ العقل ما كان ليعرفها في كمالها، رغم أنّ الجميع قد يقتنعون الآن، من حيث أنّها موجودة، بصحّتها وصلاحيّتها من خلال العقل وحده». (I. Kant, «Lettera a F.H. Jacobi, 30 agosto 1789», in Id., *Questioni di confine*, Marietti *1820*, Genova 1990, p. 105).

النصر الوشيك للفلسطينيين، فقرّر عدم انتظار النبيّ صموئيل، كما كان الله قد أمره، وقدّم بنفسه التضحية. لقد كان الوضع طارئًا، فالأعداء كانوا يهزمون شعبه، ولذلك بادر! وعند وصوله، أنّب صموئيل شاول قائلًا: «إنّك بحماقة فعلت حيث لم تحفظ وصيّة الربّ إلهك»[50]. شاول لم يفهم إذن. فانطلاقًا من تحليله للحالة، ظنّ أنّه يفهم معنى قيادة الربّ، لكنّه نسي أنّ البطل كان آخر. في الواقع، لم يكن الله ليهتمّ بالتضحية، بل بالأحرى بأن يبدأ الشعب يفهم ويثق به.
هذا هو المعيار الذي يسمح بالتحقّق ممّا إذا بدأ شعب إسرائيل من الحدث الذي وقع له – تفضيل الله له، ومبادرته تجاهه – أو من انطباعه حول الأشياء، أي كيف يواجه الواقع. فتاريخه يبيّن أنّ افتراض نفسه قادرًا على فتح الطريق إلى الحرّيّة بمفرده أعاده في العديد من المناسبات إلى العبوديّة بلا هوادة. وهذا ينطبق علينا أيضًا. والاثبات فوريّ، وقابل للتجريب على أنفسنا، فالادّعاء بأنّنا نخطّ طريقنا إلى الحرّيّة انطلاقًا من انطباعاتنا أو تحليلاتنا يقودنا دائمًا إلى شكلٍ من أشكال العبوديّة[51].

2. «من هذه الحقائق ستعرف أني أنا الربّ»

كيف يجعل الربّ نفسه معروفًا إلى درجة دخوله أحشاء الشعب، ليصبح مألوفًا له؟ من خلال نهج دقيق جدًا، هي مبادرة مستمرّة في التاريخ، تهدف إلى جعل الناس يعرفون من هو، ليس من حيث التعريف النظريّ، بل كحضور حقيقيّ يعتني بشعبه. من المذهل كيف يربط الكتاب المقدّس تجربة شعب إسرائيل بمعرفة الله، فهنا لا تجريد، ولا جمود في عقيدة، بل وعد يصبح حقيقة تاريخيّة. إنّها مسألة خبرة صافية، تمّ التحقق منها، لأنّ الخبرة لا تكون إن لم تصل إلى نقطة التعرّف إلى الأصل الذي يجعلها ممكنة.
يخاطب الله موسى قائلا: «لذلك قل لبني إسرائيل:"أنا الربّ!» ممَّ يمكنهم رؤيته، كيف يمكنهم التعرّف إليه؟ ها هو الجواب: «لأخرجنّكم من تحت أثقال المصريّين، وأخلّصكم من عبوديّتهم وأفديكم بذراع مبسوطة وأحكام عظيمة. وأتّخذكم لي شعبًا وأكون لكم إلهًا وتعلمون أنّي أنا الربّ إلهكم المُخرج لكم من تحت أثقال المصريّين.

---

[50] 1 سفر الملوك 13، 13.

[51] Cfr. H.U. von Balthasar, «Significato dell'antica Alleanza», in *Ibidem*, pp. 33-34.

وسأدخلكم الأرض التي رفعت يدي مقسمًا أن أعطيها لإبراهيم وإسحق ويعقوب فأعطيها لكم ميراثًا أنا الربّ!»[52] ففي تحقيق الوعد يتحقّق الشعب ممّن يكون حقا الله: "أنا الربّ إلهك، الذي أخرجك من أرض مصر، من دار العبوديّة»[53].

هذا ما تعلّمه إسرائيل من تجربته ووجب عليه أن يحفظه. فالله يدعو كلّ فرد من الشعب «لتقصّ على مسمع [...] آياتي التي اجريتها بينهم وتعلموا أنّي أنا الربّ!»[54] فقط إذا تمّ الحكم على هذا العمل الإلهيّ، والتعرّف إليه وحفظه في الذاكرة، يمكنه أن يحدّد عمل كلّ فرد والشعب بأكمله، وأن يشكّل نقطة البداية للتعامل مع كلّ شيء. فكلّ الأخلاقيّات، وكلّ طرق المثول أمام الواقع، «ينبع بالضرورة من الأساس الدينيّ»، أي من هذا العمل الإلهيّ. لأنّه «ليس علاقتي بالله، بل علاقة الله نحوي. وعمله الخلاصيّ هو في أساس كلّ شيء، وهذا يشملني أنا وشعبي في الوقت نفسه»[55].

لذلك فإنّ التعبير عن حرّيّة الشعب يتمّ في جوابٍ ينبع دائمًا تجاه مبادرة الله ويجد فيها أصله: «لأنّي أنا الربّ الذي أخرجكم من أرض مصر لأكون لكم إلهًا، فكونوا قدّيسين لأنّي أنا قدّوس»[56]. وهذه الدعوة، كما يذكر فون بالتازار، تعني: «كونوا أحرارًا كما أنّي أنا حرّ». وبما أنّ الله قد أثبت أنّه صحيح، وحقيقيّ، وحاسم، إلى حدّ الوفاء بوعده الخلاصيّ، فقد تحرّر بنو إسرائيل من عبادة الأصنام، ويمكنهم أن يكونوا أحرارًا، «لا تلتفتوا إلى الأوثان»، فلا حاجة لكم بها، «وآلهة مسبوكة لا تصنعوا لكم، أنا الربّ إلهكم»[57].

يجب ألا تفوتنا نقطة أخرى: لا تتحقّق معرفة الله على الرغم من تمرّد الشعب، بل تمرّ عبره. فالربّ يعرّف عن نفسه بالتحديد بالردّ على التمرّد والسهو، كما حدث أمام تذمّر إسرائيل. ويستخدم الله هذه الفرصة ليتحدّى شعبه بمبادرة جديدة: «إنّي قد سمعت تذمّر بني إسرائيل فكلّمهم قائلا [يقول لموسى]: "بين الغروبين تأكلون لحمًا

---

[52] سفر الخروج 6، 6-8.

[53] سفر تثنية الاشتراع 5، 6.

[54] سفر الخروج 10، 2.

[55] Cfr. H.U. von Balthasar, «Significato dell'antica Alleanza», in *Ibidem*, p. 38.

[56] سفر الأحبار 11، 45.

[57] سفر الأحبار 19، 4.

وفي الغداة تشبعون خبزًا وتعلمون أنّي أنا الربّ»[58]. إنّها الطريقة الثابتة التي يعرّف الله من خلالها عن نفسه لشعبه. من هذا «سيعلمون أنّي انا الربّ إلههم الذي أخرجهم من أرض مصر». ويضيف على الفور: «ليسكن فيما بينهم، أنا الربّ إلههم»[59].
والغرض من ذلك هو أن يصبح حضوره مألوفًا – «أن يسكن فيما بينهم» – لأنّ المعرفة المطلقة لله وحدها، لأنّ يقينًا أكيدًا أكثر فأكثر من حضوره، سيسمح لهم بمواجهة الظروف دون خوف: "«لأنّي أنا الربّ، [...]قائلا لك: "لا تخف"». لكنّ المرء لا يكفّ عن الخوف لمجرّد أنّ أحدهم قال له: «لا تخف!»[60] من الضروريّ أن يكون هذا الحضور قد دخل أحشاء أناه ويجب أن يكون حضورًا أثبت صدقيّته داخل حدثٍ ما. وحده الحدث المُعاش يمكنه أن يشكّل أساسًا كافيًا للثقة. كلّ ما فعله الله وما يفعله هو «لكي تعلم أنّي أنا الربّ» وأن تثق به، وإلا فهي كلمات مرسومة على الحائط.
وبحُكم التحقق المستمرّ يصل الشعب إلى معرفة متزايدة عن ربّه: «وأعطيك كنوز الظلمة / ودفائن المخابئ، / لتعلم أنّي أنا الربّ / إله إسرائيل، الذي دعاك باسمك»[61]. الله يمنح الكنوز والثروات لشعبه ليعلم أنّه هو الربّ، لكي يعرفه أكثر وأكثر على حقيقته، ويصبح مألوفًا له، مستسلمًا بثقةٍ له. من ناحية أخرى، إنّ الألفة معه بالتحديد تسهّل الوصول إلى أعماق جديدة، مخفيّة لمعظم الناس، في العلاقة بالواقع.
لسوء الحظ، غالبًا ما لا يفهم شعب إسرائيل، ويدلّ على أنّه أعمى وأحمق. وكما يقول الربّ نفسه: «عرف الثور قانيه / والحمار معلف صاحبه ، لكنّ إسرائيل لم يعرف / وشعبي لم يفهم»[62]. لم يفهم شعب إسرائيل، وتصلّب باستمرار في ادّعائه، واستسلم لإغراء القيام بعمله على هواه. لكنّ الله يعرف مخلوقاته حقّ المعرفة ويعرف أنّه إذا لم يصل عمله، مبادرته، إلى القلب، فإنّه سيبقى خارج الإنسان، وبالتالي، فهو لن يعرفه بالخبرة – الخبرة الحميمة والشخصية والعميقة، التي لم يعد من الممكن إلغاؤها، والتي تصل إلى النقطة التي تحدّد طريقة عيشه للواقع –. لذلك، ومن أجل مواجهة هذه العقبة، يقوم بمبادرة جديدة: «وأوتيهم قلبًا ليعرفوني إنّي أنا الربّ

---

58 سفر الأحبار 16، 12.
59 سفر الخروج 29، 46.
60 إشعيا 41، 13.
61 إشعيا 45، 3.
62 إشعيا 1، 3.

فيكونون لي شعبًا وأكون لهم إلهًا لأنّهم يرجعون إليّ بكلّ قلوبهم»[63]. وهكذا «يعلمون أنّي أنا الربّ إلههم. وأعطيهم قلوبًا وآذانًا سامعة»[64].
سيقطع الله مع شعبه عهدًا جديدًا، يصل إلى القلب: «ولكنّ هذا العهد الذي أقطعه مع آل إسرائيل بعد تلك الأيّام – يقول الربّ – هو أنيّ أجعل شريعتي في ضمائرهم وأكتبها على قلوبهم»[65]. «وأعطيكم قلبًا جديدًا، وأجعل في أحشائكم روحًا جديدًا»[66]، قلبًا يسمح لحضور الله باختراقه وتحديده.
سوف يكون بمقدور الإسرائيليّين إدراك حداثة هذا العهد من خلال حداثة ثماره، وفقا للنهج الذي علّمهم عبره الله أن يعرفوه حاضرًا، ومن خلالها سيعرفون من هو الربّ. «في ذلك اليوم أُنبت قرنًا لآل إسرائيل وأفتح فمك فيما بينهم فيعلمون أنّي أنا الربّ»[67]. «هأنذا أفتح قبوركم وأُصعدكم من قبوركم، يا شعبي، وآتي بكم إلى أرض إسرائيل. فتعلمون أنّي أنا الربّ حين أفتح قبوركم وأُصعدكم من قبوركم يا شعبي»[68]، لكيلا تعيشوا ظروفًا كالقبر.
يأخذ الله زمام مبادرة جديدة لهزم الشكليّة التي يتعامل بها الشعب معه. «فقال السيّد: "بما أنّ الشعب يتقرّب إليّ بفيه ويُكرمني بشفتيه وقلبه بعيد عنّي وإنّما مخافته لي وصيّة بشرٍ تعلّموها، لذلك هأنذا أعود أصنع بهذا الشعب عجبًا عُجابًا فحكمة حكمائه تضمحلّ وعقل عقلائه يفنى»[69]. إذا كانت العلاقة بالله شكليّة – بالفم والشفتين – فإنّ الشعب لا يعرف الربّ. وقلبه، وهو عضو المعرفة والالتزام، بعيد عنه، والعلاقة به تتقلص إلى أحكام بشريّة. إنّه لمُذهل! لكنّ هذا الأمر لا يوقف الربّ، الذي يأخذ زمام المبادرة مرّة أخرى – «هأنذا أعود أصنع بهذا الشعب عجبًا عُجابًا» – حتى يصبح العجب ممكنًا مرّة أخرى، وبالتالي يعرفه إسرائيل حقّ المعرفة ويمكنه أن يثق به. لن يكون الطريق طريق «الحكماء» و«العقلاء»: «فحكمة حكمائه تضمحلّ وعقل عقلائه يفنى».
نحن في فجر يومٍ جديد.

---

63 إرميا 24، 7.
64 باروك 2، 31.
65 إرميا 31، 33.
66 حزقيال 36، 26.
67 حزقيال 29، 21.
68 حزقيال 37، 12-13.
69 إشعيا 29، 13-14.

3. «تطرّف» التزام الله نحو الإنسان

ما الذي فعله الله لمساعدتنا في التغلّب على الشكليّة، هذا البُعد الذي يفصله عنه قلبنا والذي نستسلم له في كثير من الأحيان؟ ماذا فعل لتسهيل معرفته؟ لقد أخذ زمام مبادرة جريئة، حيث انخرط مع الإنسان حتى أصبح إنسانًا بنفسه. إنّه حدث التجسّد. ففي يسوع، أصبح الله «حضورًا جذّابًا من الناحية العاطفيّة»[70]، إلى حدّ تحدّي قلوبنا أكثر من أيّ شخص آخر. يكفي أن يستسلم الإنسان لجاذبيّة شخصه المنتصرة. تمامًا كما يحدث للعاشق: إنّه الحضور الرائع لحبيبته الذي يوقظ فيه كلّ طاقته العاطفيّة. يكفي أن يستسلم لسحر المرأة التي أمامه. هذا هو السبب الذي جعل تلاميذ يسوع يتعلّقون به على الفور. وكلما مكثوا معه أكثر، ازداد تعلّقهم به. لكنّ دون جوسّاني يقول لنا «إنّ تعلّقهم لم يكن عاطفيًا، لم يكن ظاهرة وجدانيّة». إنّ ما جعلهم يتعلّقون به كان «حكمًا من التقدير [...]، روعة من التقدير»[71].

«كان يسوع رجلًا مثل أيّ شخص آخر، كان رجلًا من غير أيّ إمكانيّة استثناء لتعريف الإنسان؛ لكنّ هذا الرجل قال عن نفسه أشياء لم يقلها الآخرون، وتحدّث وتصرّف بطريقة تختلف عن طريقة الجميع. علامة العلامات. فواقعه، ما إن تعرفه، كان يصبح محسوسًا، منظورًا إليه ومعتبرًا من قبل أولئك الذين أدهشهم ادّعاءه، كعلامة على واقع آخر، يشير إلى آخر. وكما هو واضح في إنجيل يوحنّا، لم يكن يسوع يتصوّر جاذبيّته عند الآخرين كمرجع أخير لنفسه، ولكن إلى الآب: لنفسه حتى يتمكن من قيادتنا إلى الآب»[72]. هكذا عرّف الله بنفسه ولا يزال. وهذا ما يقوله يسوع باختصار: "آمنوا أنّي أنا في الآب وأنّ الآب فيّ، وإلا فآمنوا من أجل الأعمال عينها"[73].

يندرج يسوع في تاريخ الخلاص الذي علّم فيه الله الشعب أن يتعرّف، من خلال أعماله، إلى أنّه هو الربّ. يشرح المفسّر الكبير شلييز Schlier سبب عدم آليّة هذا التعرّف، حتى مع التقارب الجديد وغير المسبوق من جانب الله للإنسان في شخص

---

[70] L. Giussani, *L'autocoscienza del cosmo*, Bur, Milano 2000, p. 247.

[71] L. Giussani, *L'attrattiva Gesù*, op. cit., IX.

[72] L. Giussani, *L'uomo e il suo destino. In cammino*, Marietti *1820*, Genova 1999, p. 129.

[73] يوحنا 14، 11.

يسوع، فيقول «إنّ الأعمال الخارقة للمسيح، والتي كانت تعبّر عن أعمال الله، هذه الأفعال أو الأعمال هي "آيات" يشير فيها الحدث إلى شيء يتجاوزه، ويجتمع فيه الوحي والإخفاء في وقت واحد، بحيث يسمح فقط لأولئك الذين يفهمون طبيعة ظهوره، أي لأولئك الذين يدركون مجد الله الذي يتجلّى فيهم، بأن يتعرّفوا إليه. وهكذا فإنّ الجمع الذي أكل بشكل عجائبيّ اعترف بالمسيح، من خلال المعجزة، "كالنبيّ" الذي "يجب أن يأتي إلى العالم" (يوحنّا 6، 14 وما بعد) وبالتالي أرادوا "أن يجعلوه ملكا". لكنّ المسيح يقول عنهم بالضبط: "الحقّ الحقّ أقول لكم، أنكم لا تطلبوني لأنكم عاينتم الآيات، ولكن لأنكم قد أكلتم الخبز وشبعتم" (6، 26). إنّهم، الذين رأوا بأعينهم الآية (= عمل المسيح العجائبيّ)، لم يعترفوا به هو كآية، أي كعلامة إلى شبع آخر وإلى خبز آخر»[74]. لم يكن كافيًا لهم أن يروا يسوع يقوم بمعجزة لكي يفهموا، كما يحدث لنا في كثير من الأحيان.

من أجل تمهيدنا لهذا الفهم، يقدّم لنا يسوع نفسه المعنى الحقيقيّ والكامل لأفعاله. يكتب شلبير: «إنّ أعمال المسيح، كونها معجزات، أي آيات، ترتبط ارتباطًا وثيقًا بكلمات المسيح نفسه. [...] فالمعجزة تصبّ في الكلمة. والكلمة تضرب جذورها في المعجزة. [...] وكلّ من الكلمات والأفعال هي "شهادات". [...] ويُقال عن أعمال المسيح وكلماته، على حد سواء، إنّها تُظهر (2، 11؛ 9، 3؛ 17، 6)». ماذا تُظهر؟ المسيح نفسه. «بالكلمات والمعجزات يتجلّى المسيح نفسه. فكلماته ومعجزاته هي كشف عن ذاته. [...] "الأعمال التي أقوم بها باسم أبي، هذه تشهد لي" (10، 25، انظر 5، 36)". المسيح «يشهد لنفسه وللآب»[75].

تصل شهادة يسوع إلى ذروتها في هبة نفسه للآب من أجل العالم. «إذا رفعتم ابن الإنسان، فعندئذ تعرفون أنّي أنا هو» وهذا الـ «أنا الربّ» – الذي رأيناه يتكرّر مرّات كثيرة في العهد القديم – يقوله الآن أحدُهم على الصليب، مضيفًا: «وأنّي لستُ أفعل شيئًا من عندي، ولكن كما علّمني الآب كذلك أقول»[76]. وهذا هو الظهور الأسمى للربّ، الذي يجعل من الممكن معرفة الله بالمعنى التوراتيّ للمصطلح.

لقد جعل التعايشُ يسوعَ مألوفًا جدًا لتلاميذه الذين عرفوه في النهاية. فعندما يجلس ليأكل معهم على شاطئ البحيرة، بعد القيامة، يلاحظ يوحنا في إنجيله: «ولم يجرؤ أيٌّ

---

[74] H. Schlier, *Riflessioni sul Nuovo Testamento*, Paideia Editrice, Brescia 1976, pp. 334-335.

[75] *Ibidem*, pp. 335-336.

[76] يوحنا 8، 28.

من التلاميذ أن يسأله من أنت؟، لأنّهم كانوا يعرفون جيّدًا أنّه الربّ»[77].
من خلال هبة الله حتى الموت، يصل التزام الله الشديد من أجل العالم إلى ذروته.
يمكننا رؤية الطبيعة الراديكاليّة لهذا الالتزام بفضل نوع الحرّيّة، الجديد تمامًا، الذي يجعله ممكنًا. «إنّ الالتزام النهائيّ من جانب الله بالإنسان في شخص يسوع يتبعه التحرّر النهائيّ الذي يحدّثنا عنه يوحنا وبولس: " ... فالتحرّر ليس فقط من السلطات السياسيّة، بل من جميع القوى الكونيّة للمصير وإكراه الخطيئة والغربة عن الله، وللإكراه على الدفاع والعدوان والقتل، وللانحطاط في ما هو باطل وسريع الزوال، وأخيرًا للموت": كلّ هذه القوى "مشلولة"، "وضعت خارج الاستعمال"، "بدون سلطان" من ناحية قوّتها الفاعلة»، بفضل عمل شخص آخر وجاذبيّته المنتصرة.
«وكان هذا ممكنًا – يتابع فون بالتازار – فقط إذا تمّ التغلب عليها لا من الخارج أو من فوق، بل من الداخل لأنّ الله أفرغ نفسه في الابن وأصبح مطيعًا حتّى الموت»[78].
تسلّط الحرّيّة الجديدة الموهوبة الضوءَ على الفرق بين التحرّر السياسيّ من مصر وبين هذا التحرّر الذي لا مثيل له، والذي هو أعمق بكثير من التحرّر الأوّل، لأنّها تتعلّق بكلّ سلطان، من سلطان الخطيئة والزائل، إلى سلطان الموت. هذا هو ما يوثق الفرق غير المحدود في المعرفة الذي قُدّم إلينا. لذلك يشدّد فون بالتازار على أنّ «التزام الله "نحونا" لا يكمن فحسب في إخبارٍ خارجيّ، لا نعرف نحن ماهيّته ومجرّد تكميليّ، حول مغفرة خطايانا، كما يتصوّر البعض حدث التبرير. هذا الالتزام يمسّنا بالأحرى في أعماق نواتنا الشخصيّة». يجعلنا جُددًا! يمنحنا «كرامة شخصيّة أمام الله»[79].
وتصبح حداثة هذا التحرّر من القوى والغربة والخطيئة وممّا هو زائل واضحة بالنسبة لأولئك الذين يقبلون بأن يتبعوه في مسيرة إنسانيّة، يبدو أصل حداثتها واضحًا بشكل متزايد. دعونا نستمع إلى قصّة إحدى صديقاتنا الشابّات:
«لقد بدأت رحلة الابتداء المسيحيّ في العام الماضي. تردّدت إلى مدرسة القلب الأقدس الثانويّة، حيث انتهى بي الأمر بمحض الصدفة. وتأثرت بأوّل أيّام ثلاثيّة الفصح التي شاركت فيها. ما كنت أفهم سوى القليل، لكنّني سُحرت بجمال تلك الرفقة من الأشخاص الذين كانوا معًا بطريقة مختلفة. كيف كان ممكنًا جمع آلاف الفتيان

---

[77] يوحنا 21، 12.

[78] H.U. von Balthasar, «Senso della nuova Alleanza», in H.U. von Balthasar - L. Giussani, *L'impegno del cristiano nel mondo*, op. cit., p. 40.

[79] *Ibidem*, p. 41.

البالغ عمرهم ثمانية عشر أو تسعة عشر عامًا أمام الكاهن؟ لم يكن حفلا موسيقيًّا، ولم تكن مباراة في كرة القدم، ولكنّنا كنّا جميعًا هناك، وكانت الكلمات التي سمعتها لا تبدو لي على الإطلاق بعيدة عنّي، بل إنّ الكاهن المجهول كان يتحدّث عنّي. وهناك بدأت أدرك عظمة اللقاء الذي أتيح لي، وواجهت صعوبة في مطابقته بالمسيح، ولكنّه بدأ يفتنني كثيرًا. في تلك السنوات من المدرسة الثانويّة، أعطاني يسوع كوجهٍ بشريّ له صديقة عظيمة، هي لوتشيا. لقد أثارت فضولي نظرتها إليّ بشكل متزايد. وعندما وصلت إلى الجامعة، بحثت في البداية عن شخص من الحركة، ولكن بعد ذلك تركت الأمر. ظننت أنّ ما صادفته لم يكن صحيحًا تمامًا أو على الأقلّ لم يكن كافيًا لحياتي، وأنّه يمكنني العيش بشكل جيّد بدونه. وفي شباط / فبراير، بعد قضاء عطلتي في أمستردام مع مجموعة من الأصدقاء، عدتُ إلى البيت حزينة للغاية، وشعرت بالفراغ حقًّا؛ أتذكّر بأنّني بكيت لمدّة أسبوع كامل. وفي تلك الفترة عدتُ إلى مدرسة الجماعة، وبقلبٍ يستشعر نقصًا كبيرًا، وجدت أشخاصًا يشاركونني حاجتي وتدريجيّا بدأت أشهد من جديد ذلك الاختلاف الذي كنت قد لقيته في المدرسة الثانويّة. في هذه السنوات، ومع هذه الرفقة من الأصدقاء، بدأت أفهم ببطء ما هو أصل هذه الرفقة، وماذا يعني أنّ هؤلاء الأصدقاء هم ذكرى المسيح. في العام الماضي، في نهاية شهر كانون الثاني / يناير، وبعد أربعة أشهر من العمل الخيريّ داخل جماعة تستضيف قصّارًا يعانون من الصعوبات، طلبت الانضمام إلى هذه المبادرة. وفي كلّ مرّة، قبل أن نبدأ بالعمل الخيريّ، نقرأ معًا في كتاب *Il senso della caritativa* مغزى العمل الخيريّ. يقول مقطع منه "ما يحتاجونه حقا لا أعرفه انا، لا أقيسه أنا، لا أملكه أنا. إنّه مقياس لا أملكه أنا: إنّه مقياس يكمن في الله"؛ وفي مقطع آخر: "لأنّنا بالتحديد نحبّهم، لسنا نحن من نجعلهم سعداء. [...] إنّه آخر من يمكنه أن يجعلهم سعداء. من هو علّة كلّ شيء؟ من صنع كلّ شيء؟ الله". تانك الساعتين من العمل الخيريّ لم تبقيا من غير جدوى، فقد ساعدتاني كثيرًا في اكتساب نظرة أكثر رقّة حول نفسي أوّلا، ثم في العائلة ومع الأصدقاء. هذا التغيير فيّ بالتحديد هو الذي جذبني تمامًا. ففي عيشي هذه العلاقة معه، كلّ شيء اكتسب طعمًا جديدًا. لم أعد أتعرّف على نفسي، فقد وجدت نفسي أحبّ الناس الذين بجانبي بطريقة جديدة كليّا. وهذا الجمال لم يكن ثمرة قدراتي. سرّ المعموديّة [الذي اقتبلته يوم السبت، 31 آذار / مارس، ليلة عيد الفصح] هو فقط أن أقول نعم للمسيح، مع كلّ رغبتي في أن يُمسك بي تمامًا، لأنّه وحده يستجيب لرغبتي اللانهائيّة في أن أتلقّى الحبّ. إنّه لأمر دراميّ لأنّني إنسانة ولأنّني حرّة، وكلّ يوم هناك صراع: لكنّ هذا الحنين، وفي الوقت نفسه هذا الجمال، قويّان لدرجة أنّه هو وحده يستطيع توليدهما. أنا مندهشة من طريقة العيش

الجديدة والمختلفة هذه. من المذهل أن نفكّر بأنّنا معًا "فقط" لأنّنا تلقينا جميعًا نعمة وقرّرنا السير معًا، بعد الـ "نعم" الأوّل. كم إنّه قويّ! كيف يكون ممكنًا، بطبعي الحادّ، ومع كلّ أخطائي، ومع كلّ اعتبار بأنّني مسكينة، أن أجد أمامي أشخاصًا يغفرون لي ويعتبرونني خيرًا بالنسبة إليهم؟ كيف لاحظ والديّ هذا التغيّر الذي طرأ على حياتي؟ أعتقد أنّه من المدهش حقًا ما يمكن أن يولّده يسوع إذا كنّا نعيش معه، فعندما أقوم بهذا الجهد الكبير أعتقد أنّ هذا اللقاء ما هو إلا ضرر، فأنا أفضّل أن أعيش "هانئة وهادئة" مثل زملائي في الصفّ. ولكن إذا فكّرت في الأمر بجدّيّة، فلن أتخلى عنه مقابل أيّ شيء آخر. كيف يمكنني ذلك وإلى أين أذهب؟».

وقائع مثل هذه القصّة، ومشابهة لتلك التي حدثت عندما كان يسوع يمشي في طرقات فلسطين، قج أعطيت لنا لكي يكون بإمكاننا نحن أيضًا أن نعترف بالإله الحاضر كربّ: "أنّي أنا الربّ". هذه ليست "أمورًا تافهة". بل هي جزء من تاريخ الخلاص نفسه، الذي يحدث الآن. ومثلما تجاهل الإسرائيليّون الأمر الماضي، كذلك يمكننا الآن أن نظلّ غير مبالين بهذه الحقائق.

كيف يمكننا بالتالي الحفاظ على تحرّر من القوى، من الغربة، من الزوال؟ من خلال البقاء في الأصل فقط. لنستمع مرة أخرى إلى فون بالتازار: «لا يمكننا بأيّ حال من الأحوال أن ندير ظهورنا إلى النبع [لقد اعتقدت فتاة الرسالة أنّها تستطيع العيش بدون هذا اللقاء، أي أن تدير ظهرها للنبع]، إلى النقطة التي تنشأ منها نعمة الله، كما لو كان معروفًا بما فيه الكفاية كغرض معرفيّ أو ككنز أصبح في حوزتنا ويمكننا استخدامه في العالم وإبداله بعُملة معدنيّة صغيرة». هذا هو الوهم الذي نسقط فيه بسهولة: الاعتقاد بأنّنا أصبحنا نعرف، أن نعتبر أنّ الأصل هو ملكنا الآن، ممّا يفسح المجال لإغراء التصرّف من تلقاء أنفسنا، بغضّ النظر عن العلاقة الشخصيّة مع حضوره الحيّ، مع حدوثه الآن. بدلا من ذلك، «النبع هو فم الله [هو مبادرة الله الحاليّة والمعاصرة]، التي لا يمكننا أبدًا فصل فمنا عنه. النبع هو الحدث الدائم الذي وُضعنا لأجله في حقيقة أنفسنا مع إمكانيّة البقاء هناك»[80].

كتبت لي إحدى الصديقات: «أنتظر بشوق كبير هذه الرياضة الروحيّة. عند قراءتي "الصفحة الأولى" ("قفزة للوعي الذاتيّ")[81]، وجدت نفسي متطابقة كثيرًا مع ما

[80] *Ibidem*, p. 55.

[81] J. Carrón, «Un salto di autocoscienza», *Tracce-Litterae Communionis*, aprile 2018.

تصفه، أي أنّنا نعتقد بالفعل أنّنا نعرف ونمضي قدمًا بأنفسنا. ، إنّها، كما تقول، تجربة كامنة دائمًا. وفي الوقت نفسه، أدرك جيّدًا من خلال تجربتي أنّ هناك اختلافًا عميقا بين بدءي يومي بمواجهة المواقف الصعبة أو الظروف الجميلة وفي عينيّ حدث، ويدًا باليد مع حضور، وبين أن أراهن على نفسي. هذه التجربة بالضبط هي التي تقنعني بشكل متزايد بالملاءمة الهائلة للمسيحيّة بالنسبة لحياتي ولحياة الجميع». هذا وحده يمكنه أن يُقنعنا. في الواقع، تخلص إلى القول: «أعتقد أنّني لم أكن متأكّدة من هذا الأمر إلى هذه الدرجة في حياتي كلّها».

إذن، «أن نبقى يعني [...] أن نظلّ نستقبل أنفسنا من نعمة والتزام الله [...]. فالنبع غنيّ بما فيه الكفاية لتخصيب كلّ أعمالنا الأرضيّة، إذا أبقيناه حيّا فينا ولم نبتعد عنه أبدًا. وهو وحده الخصوبة الحقيقيّة، لذلك فإنّ عملنا سيكبر على قدر قربنا منه: نبعٌ يجري في نبعنا الشخصيّ، وعملٌ يصبح بداية لكلّ أعمالنا. وكلما وقفنا أمامه كأطفال لا يتكلّمون، في موقف استقبال، ازدادت لدينا كبالغين وناضجين إمكانيّة أن ننفتح للعالم في موقف من الوهب». بطبيعة الحال، يستغرق الأمر وقتًا لكي يدخل النبع أحشاءنا: «يجب علينا استيعاب هذا البُعد في الممارسة المسيحيّة بشكل متزايد حتى لا نتخلّى عن الأصل في كلّ عمل زمنيّ. ونحن نستوعبه فقط عندما نمارسه بوعي، أي عندما نتذكّر بطريقة متجدّدة النبعَ الأصليّ، ونبتعد عن الالتهاء الدنيويّ [اليوميّ]. [...] فالنبع يتدفّق من خلال شخصنا كلّه حتى عندما تشغلنا المشاغل الأرضيّة»[82].

وإلا فكيف يمكننا أن نعيشها من دون أن تطغى علينا؟

لذلك، كما أنّ يسوع لا يمكنه الانفصال عن الآب (فهو يريدنا أن نشاركه علاقته بالآب، كما قلنا في البداية)، كذلك لا يمكننا فصل أنفسنا عن يسوع الحاضر والحيّ و، من خلاله، عن الآب. «ذهب يسوع إلى الكلام وقال لهم:" الحقّ الحقّ أقول لكم، إنّ الابن لا يقدر أن يفعل من نفسه شيئا إلا ما يرى الآب يعمله لأنّه مهما يعمله ذاك فهذا يعمله الابنُ أيضًا على مِثاله"»[83]." إن التعلّق بالمسيح الحاضر ينتمي إلى النهج الذي اختاره الله ليتواصل بشكل نهائيّ مع البشر، وهو نهج لا يمكن "تخطّيه". فالأمر لا يتعلّق بشيء يجب أن "نعرفه"، ويمكننا – بمجرّد أن نعرفه – أن نتجاهله، بل بحضور حاضر يجب قبوله، بحدث يحدث الآن يجب أن يصبح مألوفًا لنا. إنّ التجسّد هو النهج الذي اختاره الله ليخلّصنا: فالله أصبح إنسانًا في يسوع، ويسوع يطرح هذا

---

[82] H.U. von Balthasar, «Conseguenze», in H.U. von Balthasar - L. Giussani, *L'impegno del cristiano nel mondo*, op. cit., pp. 55-57.

[83] إنجيل يوحنا 5, 19.

النهج في كلّ التاريخ، حتى النهاية: «الحقّ الحقّ أقول لكم: إنّ الذي يقبل من أرسلُه يقبلني، ومن يقبلني يقبل من أرسلني»[84]. بهذه الكلمات يرسم يسوع الطريق إلى المستقبل، ويشير إلى طريقة الدخول في علاقة معه، ومن خلاله مع الآب. إنّها دعوة يوجّهها إلى كلّ واحد منا اليوم: كيف يمكننا من دونها أن نصل إلى ألفة مع المسيح؟ عندا هذا الحدّ، يمكننا أن نفهم لماذا يأسف دون جوسّاني لكون مسيرة الانتماء إلى الحركة لا تؤدّي إلى ألفة مع المسيح، إذ إنّ التغيير الحقيقيّ في حياتنا يعتمد عليها. «هذا التغيّر في الكينونة هو حضورُ آخرَ»[85]. والتغيّر لا يتطابق مع التماسك، بل مع حضور، مع ألفة معاشة، مثل ألفة يسوع مع الآب. بدونها، سيكون التغيّر ظاهريّا ولن يكون هناك شيء دائم. عندما تنقصنا الألفة مع المسيح، تنقصنا نقطة الارتكاز للعيش، ولمواجهة الظروف؛ فنبقى عالقين في انطباعاتنا، وطريقة مثولنا أمام الواقع لا يعود يحدّدها حدث المسيح، بل تحدّدها – كما هو الحال بالنسبة للجميع – أفكارُنا المسبقة، وتصوّراتنا. وما "نعرفه" لا يعود يكفينا للعيش الآن، وهذا ما يستطيع كلّ واحد منا أن يتحقق م صحّته بنفسه، في تجربته الخاصّة، كلّ يوم، أمام كلّ تحدٍّ، وفي كلّ ظرف من الظروف.

4. علامَ يرتكز اليقين

وحدها الألفة مع المسيح يمكنها أن تعطينا اليقين الذي نحتاج إليه. وإلا فأين نبحث عن قوامنا؟ «في ما نقوم به أو في ما لدينا، وهو نفس الشيء. وهكذا، فإنّ حياتنا لاتملك أبدًا هذا الشعور من [...] اليقين التامّ [...]. في أحسن الأحوال، نصل إلى الرضى بما نفعله أو إلى الرضى عن أنفسنا». تخيّلوا كم يدوم ذلك! «وهذه الشظايا من الرضى عن أنفسنا في ما نفعله أو في ما نحن عليه لا تقود إلى أيّة بهجة أو فرح، ولا إلى أيّ شعور أكيد بالملء، فلا يقين ولا ملء»[86].
يمكن ليقيننا أن يرتكز فقط على «شيء حدث لنا، وقع لنا، دخلنا، التقيناه [...]. إنّ هويّتنا، وقوام شخصنا، ويقين الزمن يتطابق – يتطابق حرفيًا – مع هذا الشيء الذي حدث لنا. يستدرك إيمانويل مونييه، وهو يتحدّث عن ابنته المريضة، بعد قوله:

---

[84] إنجيل يوحنا 13, 20.

[85] L. Giussani, *La familiarità con Cristo*, San Paolo, Cinisello Balsamo-Mi 2008, p. 27.

[86] *Ibidem*, pp. 25-26.

"حدث لنا شيء ما"، قائلا: «"حدث لنا أحدٌ ما" [...]. لقد حدث لنا أحدٌ ما، لقد قدّم لنا ذاته، وقدّم لدرجة أنّه دخل في جسد وعظام وروح [كلّ واحد منّا]: "فأحيا، لا أنا، بل هو [المسيح] الذي يحيا فيّ"». نحن أيضًا، عندما نكون "مأخوذين" حقًا، نقوم بخبرة مريم أو الرعاة أو المجوس: هويّتنا وقوامنا هما في ما حدث. وهذا يعني التخلّي عن الموقف الموجودين فيه وندع حضور شخص آخر يحدّدنا، آخرُ فضّلنا حتّى قبل جوابنا. أن نكون محبوبين «يطرح حقيقة لا رجعة عنها» و «يحدّد قيمتنا في العالم»[87]. ولكن يجب علينا قبوله.

دعونا نفكّر في أيّ نوع من الانعكاسات كان يشعر به قلبُ مريم كلّما «أدركت ما قد حدث» وكيف «كانت تتأمّل في نفسها بما حدث». تخيّلوا «ما شعر به الرعاة، أو ما شعر به المجوس ... فما حدث ظهر لهم كشيء كان يضرم أيضًا إدراك الترقّب، وهو لم يكن في المقام الأوّل ردًا على الترقّب، بل كان حضورًا طاغيًا». بالنسبة إلى مريم والرعاة والمجوس «ما حدث سيطر على عيونهم وقلوبهم، وسيطر على وعيهم لأنفسهم. [...] لقد كان هذا الطفل هم بأنفسهم، كان هويّتهم، ويقينهم، وملئهم، ولم يعودوا يتذكّرون ما كان في السابق. لم يعودوا يتذكّرون، أمام ذلك الطفل، حتّى طموحاتهم، لم يعودوا يتفكّرون فيها، لأنّ ذلك الطفل هو من كان يُملي عليهم كلّ شيء»[88]. بهذه الطريقة عرفوا المسيح: لقد عرفوه بالخبرة.

والدليل على أنّ حياتنا يحدّدها يقينُ ما حدث لنا هو أنّ «البهجة والفرح» يهيمان عليها، وهما علامتان لا لبس فيهما، يكمن في أصلهما العطف والحنان. «الحنان»، الانتباه، «ليس الرضى بشعورنا، بل الاستسلام، والشعور بهيمنة الحبّ الذي استحوذ علينا، الشعور بمن استحوذ علينا. [...] إنّه كالطفل الذي يفتح عينيه فيملأه ما يراه ولا مجال لديه للشعور الذي ينتابه»، فينسى نفسه، «أمام ما يراه، فكلّ شيء مليء بما يراه. [...] يحبّ الإنسان نفسه فقط من أجل هذا الذي أمامه، بالمسيح، بهذا الذي أمامه، بهذا الحدث». هذا هو الهدف الأسمى لكلّ عمل الله، لأنّنا لا نستطيع أبدًا أن نكون نحن أنفسنا بالملء كما عندما يسود هو. يا له من اختبار وقع لجوسّاني حول حنان الله نحونا حتّى يقول إنّه «مليون مرّة أكبر، وأكثر شدّة واختراقًا لنفوسنا من معانقة الرجل لزوجته، والأخ لأخيه»![89]

ولإدراكه سهولة انزلاقنا نحو الترف الثقافيّ، يقدّم لنا دون جوسّاني تنبيهًا أخيرًا:

---

[87] *Ibidem*, pp. 26-28.

[88] *Ibidem*, pp. 30-31.

[89] *Ibidem*, pp. 32-33.

«هذه الأمور لا تُفهم عن طريق المنطق، بل عن طريق النظر [...] إلى الخبرة»، فنترك أنفسنا تنساق وتنجذب وتُفتن «ضمن وعي هذه الهويّة بيني وبينك يا الله، هويّتك أنت معي، وبشكل أفضل، ضمن وعي لهذا الحدث الذي استقرّ في داخلي، لهذا الـ "أنت الذي هو أنا"»[90].
الصمت هو المساحة المفردة لننظر في هذا الـ «أنت الذي هو أنا».

[90] *Ibidem*, p. 33.

القدّاس الإلهيّ

قراءات الليتورجيا: أعمال الرسل 13، 44-52، المزمور 97، يوحنا 14، 7-14

عظة الكردينال كفين جوزف فارّيل
رئيس دائرة العلمانيّين والعائلة والحياة

أيّها الإخوة والأخوات الأعزّاء في المسيح،
الرياضة الروحيّة وقتٌ مناسب يمنحنا إيّاه الربّ لإعادة التركيز على حياتنا الداخلية. إنّها بالنسبة للجميع، كهنة وعلمانيّين، مسألة وضع "نصبَ قلبنا" من جديد جوهر حياتنا الإيمانيّة والدعوة المحدّدة التي وهبها الربّ إلى كلّ واحد منا. هذان هما العنصران اللذان يتعيّن استعادتهما هذه الأيّام: ما الذي جعلني أصبح مسيحيّا وكيف أنيّ مدعوّ "لأكون في العالم" كمسيحيّ؟ وهذان العنصران لا ينفصلان: ففي العودة إلى الجوهر المؤسِّس لحياتي الإيمانيّة، إلى اللقاء الأصليّ مع الربّ يسوع، أجد أيضًا الأسباب العميقة وأنبل الدوافع التي يجب أن تنشّطني في الدعوة المحدّدة التي عهدها الربّ إليّ، ككاهن أو كزوج، كوالد، كمربٍّ، كشخص يعمل في التعليم والتجارة والإعلام والسياسة والتنمية الاجتماعيّة، وفي أيّ نشاط آخر من نشاطات العمل.
نحن نعلم جيّدًا أنّنا معرّضون كلّنا لخطر الضياع في الأمور اليوميّة، لخطر أن تشغلنا الاحتياجات والأعباء المادّيّة الطارئة التي تضعها أمامنا الحياة بلا هوادة، وهكذا، ومن دون أن ندرك ذلك، فإنّنا نخاطر بالعيش لمدّة أسابيع أو شهور ونحن "نقوم بأشياء" ببساطة. فيصبح "فعلنا" طاغيًا، لكن "كوننا" يصبح فقيرًا. فندخل في حالة من المعاناة الداخليّة، لأنّ "الفعل" وحده لا يرضينا، بل إنّه يشوّهنا ويترك فينا فراغًا، لأنّه لا يأتي من ملء ما لدينا في داخلنا، أو بالأحرى، ممّا نحن عليه في داخلنا، فهو ليس التعبير الحيّ عن شخصيّتنا، وقناعاتنا، وحساسيّتنا، وبكلمة واحدة: عن إنسانيّتنا التي "لمسها" المسيح، الربّ يسوع، ولكنّها ردّ سلبيّ على ظروف الحياة. إنّها التجربة المؤلمة التي غالبًا ما نقوم بها عند فقدنا لـ "مركزنا". وهي مؤلمة لأنّ في "مركز" أنفسنا ذاك، في "الجوهر الحيويّ"، جرى لقاؤنا بالمسيح وهناك، بعد أن

لقيناه، وجدنا أنفسنا أيضا، لأنّه، وكما ورد في عبارة شهيرة للمجمع الفاتيكانيّ الثاني: «في الواقع، في سرّ الكلمة المتجسدّ وحده يجد سرّ الإنسان النورَ الحقيقيّ»[91].
وبالتالي، عندما أفقد هذا "المركز"، الذي يسكنه "أنايَ" الأكثر أصالة و "المسيح فيّ"، تبادر إلى صميم نفسي أسئلة تثير القلق: لماذا أقوم بكلّ الأشياء التي أقوم بها؟ يقدّم لنا إنجيل اليوم ضياعًا من هذا النوع لدى الرسول فيليبوس أيضًا. لقد كان لقاؤه الأوّل مع يسوع مصحوبًا باليقين المباشر بأنّه وجد فيه الحقيقة والإجابة على عطشه للمعنى. وهذا ما يمكننا أن نستنتجه من الكلمات الحماسيّة التي يخاطب بها نثنائيل: «إنّ الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياءُ قد وجدناه، وهو يسوع بن يوسف من الناصرة»[92]. ولكن بعد مرور بعض الوقت، كما يبدو من إنجيل اليوم، بدا فيليبوس أقلّ ثقة. لقد طمأن يسوع تلاميذه قائلًا: «ومن الآن تعرفون الآب وقد رأيتموه»[93]، موضحًا أنه يمكنهم من خلاله أن يكونوا على يقين من أنّهم قد عرفوا الآب ورأوه. ومع ذلك، في تلك اللحظة بالتحديد، سمع فيليبوس يسأله: «يا ربّ، أرنا الآب وحسبُنا»[94]. كيف اختفى "الحدس الداخليّ" الذي كان لفيليبوس منذ البداية بخصوص يسوع؟ ألم يكن في قلبه اليقين الذي لا يتزعزع بأنّه قد قابل الله في ذلك الرجل بالتحديد، في يسوع الذي كان قد عرفه في الجليل؟ هذه هي لحظات الضياع التي تحدث لنا أيضًا، عندما يكون يضعف يقينُنا، تمامًا كذكريات باهتة لماضٍ بعيد، من أنّنا عثرنا على الحقيقة في يسوع، ومن أنّ الله بذاته قد جعل نفسه حاضرًا في حياتنا.
هذه هي إذن نعمة الرياضة الروحيّة. إنّها الوقت الذي يقدّمه لنا الله لمنع ذوبان أنانا، ومعه وقبله، إيماننا الذي هو في أصله. لكّننا نتساءل: كيف نجد أنفسنا؟ كيف نُعيد الحياة إلى إيماننا؟ دعونا نعود إلى إنجيل اليوم، في محاولة للعثور على إجابة. يدرك يسوع ضياع فيليبوس، وبعد أن يوجّه له اللوم بلطفٍ، يحاوره بكثير من الرحمة. وفي هذه اللحظة من عدم الوضوح لدى التلميذ، يفتح له قلبه، ويكشف له عن السرّ الأكثر

---

91 المجمع الفاتيكاني الثاني، دستور رعائيّ حول الكنيسة في العالم المعاصر "فرح ورجاء", 22.
92 يوحنا 1، 45.
93 يوحنا 14، 7.
94 يوحنا 14، 8.

حميميّة لشخصه: «أما تؤمن أنّي في الآب وأنّ الآب فيّ؟»[95]. وإذا كان يسوع يشعّ بالحكمة والقداسة والسلطة على الشرّ وبوضوح الحكم وبالسلطان في الكلام، فذلك لأنّ الآب موجود فيه، ولأنّه هو نفسه يعيش مغمورًا في الآب. «الآب الذي هومقيمٌ فيّ هو يعمل الأعمال»[96]. إنّ التأصّل المتبادل للآب والابن هو أصل كلّ الخصوبة وكمال الحياة اللتين يشعّهما المسيح. وإذا ما فكّرنا جيّدًا في الأمر، هذا هو كمال القداسة والحكمة وفهم الواقع الذي نفتقر إليه، وبالتالي غالبًا ما نشعر في داخلنا بالفراغ وعدم الرضى. إذن، يكشف يسوع لفيليبوس أنّه يمكن، من خلال الإيمان، أن ينشأ في كلّ واحد منّا نفس الواقع الذي يميّز الابن: «إنّ من يؤمن بي يعمل الأعمال التي أنا أعملها». يكشف يسوع أنّه، كما يعيش الآب في الابن ويعمل فيه، هكذا، من خلال الإيمان، يمكن للابن أن يعيش في كلّ واحد منا ويع[97]مل فينا. لكنّ الإيمان الذي يجعل المسيح «يحيا فينا»، ناقلًا إلينا قداسته وحكمته، ليس اقتراحًا ذاتيًا. إنّه القبول المنطقيّ لشهادة رجال ونساء مثلنا التقوا بالمسيح. ولذلك يولد من لقاء شخصيّ وإنسانيّ مع المسيحيّين الآخرين، الذين يعيش فيهم المسيح ويجعل نفسه من خلالهم حاضرًا لنا أيضًا.، يذكر سفر أعمال الرسل الذي استمعنا إليه في القراءة الأولى أنّ العديد من الوثنيين في أنطاكية بيسيدية، بعد أن صادفوا بولس وبرنابا، وبعد أن شهدوا طريقة حياتهما واستمعوا لكلامهما «فرحوا ومجّدوا كلمة الربّ وآمن كلّ من أُعدّ للحياة الأبديّة»[98]. إنّه نفس الفرح التي انتابنا عندما التقينا لأوّل مرة بأشخاص يقدّمون إنسانيّة جديدة غير عاديّة، مختلفة، جديدة، أدهشتنا وسحرتنا، وعندما اكتشفنا أنّ "اختلافهم" كان يعود إلى حضور المسيح الحيّ فيهم. وكبُرت البهجة التي انتابتنا عندما اكتشفنا أنّ هذا «الحضور الاستثنائيّ للإلهيّ في الإنسانيّ»، أي المسيح، كان شيئًا يرضي جميع رغبات قلبنا الأكثر أصالة وعمقا. وهكذا انفتحنا على الإيمان. ها هي المهمّة التي تنتظركم في هذه الرياضة: إعادة اكتشاف حقيقة حضور المسيح الملموسة وجماله فيكم، وبالتالي إعادة اكتشاف أنفسكم.

---

[95] يوحنا 14، 10.

[96] نفس المرجع.

[97] يوحنا 14، 12.

[98] أعمال الرسل 13، 48.

أيّها الأحبّاء، اسألوا في هذه الأيام نعمة تذكّر الوجوه والظروف الملموسة التي أتى من خلالها المسيح يومًا للقائكم، وأن تكونوا ممتنّين لهبة الإيمان الذي تلقيتموه في ذلك اليوم. وهو يومٌ بعيد جدّا بالنسبة لبعضكم، وأقرب بالنسبة للآخرين. واطلبوا نعمة أن تفهموا كيف أنّ المسيح لم يبتعد عنكم أبدًا منذ ذلك اليوم، حتى وإن فقدتم غالبًا الوعي بقربه منكم. اطلبوا من الله الآب ان يحيي فيكم مواهب الروح القدس التي تسمح لكم بإدراك حضور المسيح اليوم أيضًا، في التحدّيات والظروف المعيّنة التي تعيشونها، وفي الأشخاص الموجودين إلى جانبكم، وفي الأسرة أو في العمل، وفي تاريخ القداسة الي تبنيه العناية الإلهيّة معكم، مستخدمة البؤس والحجود أيضًا. اطلبوا نعمة التأمّل بعيون جديدة بالكنيسة، وفي الكنيسة، بالجماعة الملموسة من الإخوة والأخوات الذين وضعهم الربّ قربكم لتدعموا بعضكم البعض في الإيمان. لا تنسوا أنّها بالنسبة لكم جسد المسيح القائم من الموت، حيث تلتقونه في الاستماع إلى كلمة الله، وفي الأسرار، وفي الصلاة المشتركة، وفي شهادة الإيمان. واطلبوا نعمة معارضة الخطيئة بحزم وثقة بالله. فالخطيئة هي التي تدمّر أثمن كنز لدينا: حضور المسيح فينا! إنّنا لا نخسرنّ المسيح ومعه كلّ فوائد الحياة المسيحيّة. فالحفاظ على حضور المسيح فينا هي أعظم مساعدة نستطيع أن نقدّمها للعالم! لقد وجّه البابا فرنسيس هذه الدعوة في إرشاده الرسوليّ الأخير حول القداسة: «اسمح له [للروح القدس] بأن يصقل فيك ذلك السرّ الشخصيّ الذي يمكنه أن يعكس يسوع المسيح في عالم اليوم. ليتك تعرف ما هي تلك الكلمة، ما هي رسالة يسوع التي يرغب الله أفي قولها للعالم من خلال حياتك»[99]. أن تكون انعكاسًا للمسيح أمام الآخرين، أن تكون كلمة من كلمات الله أمام العالم! كلّنا مدعوّون إلى هذا! إذا كان المسيح يعيش فينا، فسيحصل الجميع، حتّى أولئك الذين لا يؤمنون أو الذين هم معادون لنا علانية، على فوائد عظيمة، لأنّ كلا منّا ينتظر "كلمة الله" هذه له. و "كلمة الله" هذه هي أنت!

يقول يسوع في إنجيل اليوم: «إن سألتم شيئًا باسمي، فإنّي أفعله»[100]. لا يقول: «سوف يستجيب الله لكم»، ولكن «فإنّي أفعله»، بمعنى «أنا بنفسي سأفعله في نفسكم». وهذا يعني أنّ المهمّة التي أوكلها الآب إلى الابن من أجل خلاص العالم،

---

99 البابا فرنسيس، الإرشاد الرسوليّ افرحوا وابتهجوا، 23-24.

100 يوحنا 14، 14.

يريد أن ينجزها من خلالنا. دعونا نطلب، إذن، في الصلاة، أن يتمّم المسيح عمله فينا، أن يتمّم تدبيره للخير فينا وأن يجعل أخويّتكك، التي نشأت من موهبة دون جوسّاني، علامة حيّة عن محبّة الله الهائلة لكلّ البشر، لكي يعرف الكثيرون من خلالكم الحداثة الدائمة للمسيح، مخلصّنا الوحيد، ومصدر السعادة الوحيد للعالم.

قبل البركة

خوليان كارّون. صاحب النيافة العزيز، باسم كلّ فرد من الحاضرين وباسم جميع أعضاء أخويّة شراكة وتحرّر، أودّ أن أشكركم جزيل الشكر على قبولكم تروّس هذه الذبيحة الإلهيّة خلال رياضتنا الروحيّة السنويّة. نشكركم على كلماتكم ولكونكم شهادة حيّة على محبّة البابا فرنسيس وبادرته الطيّبة، والذي نرغب في متابعته بكلّ جوارحنا، متوجّهين بكلّ ثقة للقاء بإخوتنا بني البشر، وخاصّة الأكثر احتياجًا منهم، في هذه الأوقات الصعبة، وفي نفس الوقت المليئة بالأمل ببداية جديدة. شكرًا!

الكردينال فارّيل. شكرًا لك وشكرًا لكم جميعًا. إنّ ما قلتُه بإيطاليّتي المميّزة هو أنّه يجب أن تكونوا، بل أنّكم حضور المسيح في العالم. لا توجد أيّة علامة أخرى على صلاح الله، على رحمة الله، على محبّة الله، باستثناء ما يمرّ من خلالنا. ما هي مهمّتنا في السنوات القليلة القادمة؟ أن نكون الحضور الحقيقيّ للمسيح في العالم.

* * *

صلاة "افرحي يا ملكة السماء"

السبت 28 نيسان/أبريل بعد الظهر

عند الدخول والخروج:
أنتونين دفوراك، ثلاثي رقم 4 دو مينور، العمل 90 "دومكي"
ثلاثيّ براغ
"سبيرتو جنتيل" 26، تعاونيّة دار نشر العالم الجديد - يونيفرسال

التأمّل الثاني
خوليان كارّون

«طوبى للعيون التي ترى ما ترون»

كما تعرفون، توفّي هذه الليلة الطفل آلفي[101]. لقد نشر البابا لتوّة هذه التغريدة: «لقد تأثرت كثيرًا بموت آلفي الصغير. أصلّي اليوم خصّيصًا من أجل والديه، في حين يضمّه الله الآب إليه بحنان".
فلنقف لتلاوة صلاة

المجد للآب....
هلمّ أيّها الروح القدس، هلمّ لمريم

1. لماذا لدينا صعوبة كبيرة في التعرّف إلى المسيح الحاضر؟

لقد أظهرت لنا المسيرة التي قمنا بها هذا الصباح مبادرات الله العديدة لإدخال ما ينبغي أن يكون واضحًا للعقل في قلوب البشر: «إنّ الربّ هو كل شيء». إلى الصعوبات التي رأيناها تظهر طوال هذا التاريخ، أضيفت في وقتنا هذا صعوبة أخرى، ممّا يجعل الطريق تتطلّب جهدًا اكبر. يلخّص البابا فرنسيس في رسالته العامّة "نور الايمان" طبيعة هذه المشكلة: «إنّ ثقافتنا قد فقدت مفهوم حضور الله الملموس هذا، وكذلك عمله في العالم. نعتقد أنّ الله موجود فقط في الأخرويّات، في

[101] بعد طول جدال ونقاش وطعون أمام المحكمة، وصلت قصة آلفي إيفانز، الرضيع البالغ من العمر 23 شهرًا والذي تمّ نقله إلى المستشفى في ليفربول بسبب مرض عصبيّ خطير يصعب تشخيصه، إلى خاتمتها في 28 نيسان / أبريل 2018 بعد أن أمر قاضي المحكمة العليا الإنجليزية بفصله عن الآلة التي كانت تبقيه على قيد الحياة.

مستوى آخر من الواقع، وأنّه منفصل عن علاقاتنا المحسوسة. ولكن إن كان الأمر هكذا، وإن كان الله غير قادر على التحرّك في العالم، فإنّ محبّته لن تكون قادرة فعلا، واقعيّة حقّا، ولن تكون بالحصيلة محبّة حقيقيّة، قادرة على إتمام تلك السعادة التي تعد بها. أن نؤمن أو ألا نؤمن به سيكون بالحصيلة سيّان»[102].

لقد حذّرنا دون جوسّاني من هذه الصعوبة قبل سنوات. بما أنّ «من المستحيل العيش في السياق العامّ دون التأثر به»، يجب أن نكون على بيّنة من الواقع الذي نعيش فيه، من اللحظة الثقافيّة التي ولدنا فيها: «نحن أنفسنا نشارك في تلك العقليّة التي تعتبر أنّ الله مجرّدٌ أو هي تنساه وحتى تنكره». ويضيف دون جوسّاني «وهكذا، في الواقع، وجوديّا، نصل إلى إنكار أنّ "الله هو كلّ شيء في كلّ شيء"»[103]، على الرغم من أنّنا من بين الذين يقرّون بوجوده.
كيف شقّ هذا الإنكار لوجود الله المحسوس في الواقع طريقه إلى تاريخنا؟ «إنّ إنكار حقيقة أنّ "الله هو كلّ شيء في كلّ شيء" قد اعتمد على عدم تديّن غريب عن تنشئة الشعوب الأوروبيّة». وعدم التديّن هذا «يبدأ، من دون أن يلاحظ أحد، من فصل ما بين الله باعتباره أصل ومعنى الحياة (وبالتالي ذا صلة بالأشياء التي تحدث، بالأحداث الإنسانيّة) والله كحقيقة فكريّة»[104]. في أصل النفي هناك إذن فصل: فصل الله عن الخبرة. مسيرة هذا الصباح بأكملها لم تكن مقدّمة، جانبًا تمهيديّا للخطاب. بالأحرى كانت محاولة لإظهار كيف أنّ الله جعل نفسه حاضرًا كـ "الربّ" من خلال عمله في التاريخ، حتّى لا يفصله البشر عن تجربتهم.
ولكن – أرجو الانتباه – تكمن جذور هذا الفصل في طريقة معيّنة لتصوّر العلاقة بين العقل والخبرة، وفي استخدام معيّن للعقل. يقول دون جوسّاني: «يتمّ توضيح جوهر المسألة في النضال الجاري حول طريقة فهم العلاقة بين العقل والخبرة». ففي الخبرة، ينبثق الواقع – «وهو واقع أعطي لنا، نواجهه، ولم نخلقه نحن» – من نظرتنا البشريّة. وما هو العقل إذن؟ «إنّه ذاك المستوى من الخلق الذي يدرك فيه ذاته [...]. هذا الوعي الذاتيّ يولّد تعريف العقل»[105]. وهذا هو بالضبط ما تصدّع: فالعقل، وبدلا من أن يكون وعي الحقيقة التي تتجلى في الخبرة، أصبح "مقياسًا" للواقع، وبدأ

---

[102] البابا فرنسيس، الرسالة العامّة "نور الإيمان" 17.

[103] L. Giussani, *L'uomo e il suo destino. In cammino*, op. cit., p. 105.

[104] *Ivi*.

[105] *Ibidem*, pp. 106-108.

العقل يفرض حدوده على الخبرة، ويُخضع الخبرة لـ "مقاييسه".
لإعادة اكتشاف أنّ «الله هو كلّ شيء في كلّ شيء»، من الضروريّ أوّلا «الاسترجاع الودّيّ لكلمة "عقل"، وهي الكلمة الأكثر إثارة للإرباك في الخطاب الحديث». فإذا أسأنا استخدام العقل، تعرّضت كامل مسيرتنا المعرفيّة للخطر. ونحن نرى ذلك من النتائج التي يقود إليها. «إذا أسأنا استخدام العقل، إذا استخدمناه كمقياس، وقعت [...] ثلاثة اختزالات خطيرة محتملة تؤثّر على كلّ السلوكيّات»[106] ولها تداعيات على الطريقة التي نتصوّر بها المسيحيّة ونعيشها، أي علاقتنا بما لقيناه. دعونا نبدأ من الاختزال الأوّل.

أ) الإيديولوجيا بدلًا من حدث
يتعلّق الاختزال الأوّل بالبديل الكبير في العلاقة بالواقع: فنقطة البداية – كما قلنا في يوم بداية السنة – هي إمّا ما يحدث أو هي انطباعنا، مفهوم مسبق. «كما لو أنّ في حكم الإنسان على الأشياء ينبري فجأة، ومن دون أن يدرك، خطابٌ قديم، أمرٌ جرّبه، أي تصوّر مسبق»؛ فننطلق من مفهوم مسبق بدلًا من أن ننطلق «من الوقائع، من تفوّق وجودنا، والأشياء كما تحدث، والأشياء التي نواجهها»[107]، من الأحداث.
إنّ الانطلاق من التصوّر المسبق وليس من شيء يحدث، أي التأثير العقلانيّ، ينعكس على طريقة فهم المسيحيّة، ويقود إلى اختزال في طبيعتها: فالمسيحية لا تعود "ممرّا، من يوم إلى يوم، لحضور الله [...] للواقع الأصليّ، بل اختزاله إلى أمر مسبق مجرّد»[108]. ولكن عندما «يتمّ تصوير المسيحيّة على أنّها مفهوم، عقيدة، طريقة إدراك ومعاملة، فإنّ المسيحيّة أيضًا تصبح أيديولوجيا»[109]. ما الفائدة من هذه الأشياء التي يخبرنا بها دون جوسّاني بالنسبة لحياتنا؟ إنّها حاسمة، لأنّنا عندما نختزل المسيحيّة إلى أيديولوجيا، فلن تعود قادرة على تغيير الحياة، وعلى إضفاء شكل على العلاقة بالواقع. ومن ثمّ يمكننا أن نعرف كلّ شيء، ولكنّنا نختنق في الواقع. إنّها مخاطرة تخصّنا: يمكننا تحويل الحركة إلى "أمر معروف"، إلى إيديولوجيا، إلى خطاب نهيمن عليه، أي أنّنا نستطيع أن نستبدل الحدث الإلهيّ بتصوّرنا المسبق. هذا

[106] *Ibidem*, pp. 108-109.
[107] *Ibidem*, pp. 109-111.
[108] *Ibidem*, p. 67.
[109] L. Giussani, «Avvenimento e responsabilità», *Tracce-Litterae Communionis*, aprile 1998, p. III.

ما يوثّقها كلّ واحد منّا، طوعًا أو كرهًا، في طريق تحرّكه داخل الواقع.
تكتب إحداكم: «في مساء أحد الأيّام وصلتُ حزينة للغاية وأنا أشعر بالمرارة بسبب وضع معيّن في العمل. تناولت وأنا منهكة نصّ بداية السنة، وقرأت فيه: "إنّ نقطة انطلاق المسيحيّين هي حدث. أمّا نقطة الانطلاق بالنسبة للآخرين فهي انطباع معيّن عن الأشياء". بالنسبة لي، في ذلك اليوم، لم يكن الحدث حتّى آخر أفكاري. لم يكن موجودًا البتّة!» هذا الظرف جعلها تسأل «لماذا لم يجُل في فكري»، ولماذا نزعته الخبرة، وطريقة التعاطي مع الواقع، و «عمّا يعنيه بالنسبة إلى المسيحيين أنّ الحدث هو نقطة الانطلاق في كلّ علاقة». للإجابة على هذه الأسئلة، بدأت بعد ذلك تنظر إلى تجربتها وأدركت أنّ «هناك ظروفًا تحدث، تكون حتى أكثر صعوبة وإشكاليّة، أجد فيها نفسي منفتحة وحاضرة أمام السرّ. وإذ أواجهها لا أشعر بالتعب ولا بالإنهاك، بل أجد نفسي أكثر يقينا حول من أكون وحول من الذي يقود حياتي. في طريقة التعامل مع الظروف، يكمن الفرق إذن في حقيقة أنّني في بعض الأحيان أجد نفسي عزلاء بالكامل والموقف الوحيد الممكن هو السؤال. وأكون تعيسة. في حالات أخرى أعرف أصلا، أعرف ما هو الصواب وما العمل. فهمي لهذا فتح شرخًا حول معنى الفقر. رأيت العلاقة بين الفقر والحدث. وحده العقل المحتاج والمنفتح يمكنه التعرّف إلى الحدث الذي يحدث الآن». فقط عندما نعترف بأنفسنا فقراء، فقط عندما نكون محتاجين، نعي ما يحدث أمامنا.
كلّ شيء يتغيّر عندما تكون المسيحيّة حدث المسيح، عندما لا ينحصر في خطاب، بل يكون حقيقة في حياتنا.
أصيبت معلمة، تعترف بأنّ لديها كلّ شيء (ابنتين جميلتين، ورفيق درب صالح، وبعض الرفاه الاقتصاديّ، والصحّة، والأسفار، وما إلى ذلك)، بالدهشة من اختلاف زميلة لها من أعضاء الحركة: فرغم امتلاكها كلّ شيء، "ينقصها" شيء تملكه تلك الزميلة "بوفرة". أصيبت المعلمة بالذهول لأنّ زميلتها استطاعت أن تبقى في سلام داخليّ وسط الكثير من الظلم الذي عانته ولا تزال قادرة على التعاطي بشكل إيجابيّ مع الأشخاص الذين آذوها. وهكذا دعتها صديقتنا للمشاركة في حياة الحركة فذهبت إلى اجتماع حول الرياضة الروحيّة، وقرأت الكتيّب ثم ذهبت إلى لقاء بداية اليوم؛ وهذا ما غيّرها لدرجة أدهشت زوجها وأصدقاءها. حتى طلابها سألوها عمّا يحدث لها. وإذ وجدت عضوة الحركة نفسها أمام هذا التغيير، لم تكن غير مبالية بالأمر، فكتبت لي: «إذا كانت هذه هي البداية بالنسبة للمرأة، فإنّها بداية بالنسبة لي ايضًا، لأنّها يتصيبني بالعدوى، وتُعيد إليّ بساطة اللقاء. أرغب بالجلوس معها لأنّني أرى حدث المسيح في وجهها، في دهشتها، في فرحها. ومن السهل أن تقول "أنت"،

يصبح الأمر سهلًا للغاية. ذات يوم، في مجموعة مدرسة الجماعة، دخلنا بطريقة معيّنة وخرجنا بأخرى، وكلّنا سعداء، سعداء جدًا. لقد كان واضحًا أنّ المسيح كان حاضرًا، وكان يحدث فيها، فأصابتنا بالعدوى. فقد كان يحدث فينا أيضًا لأنّنا رأيناه يحدث. أنّه يحدث الآن! عليك فقط أن تراه. أدرك، كما تقول في نصّ يوم البداية، أنّ بإمكاننا اتخاذ مواقف مختلفة أمام ما يحدث؛ يمكننا أيضًا أن نقول: "حسنًا، ما أجمله، إنّها بدايتها"، وتحليل الأمر فورًا، بدلا من النظر إليه، والاعتراف بأنّها الطريقة التي اختارها الله للتواصل في هذه اللحظة بالذات. ولكن عندما نبقى، ولو قليلًا، حيث يحدث، فمن الصعب للغاية تجنّب العدوى. وهو أمرٌ بسيط للغاية. في البداية كان الأمر كذلك!».

أرجو ألا تختلط الأمور عليكم: فالحدث ليس عاطفة نشعر بها. كتب أحدكم: «أودّ أن أعرب عن عدم ارتياح شعرتُ به في مدرسة الجماعة لأنّني أعتقد أننا نميل إلى تحديد الحدث بأيّ شيء يثير فينا العاطفة، سواء أكان يومًا جميلا، أو فنجان قهوة معًا (أي في كلّ مرّة تُشعرنا رفقتنا بالسعادة)، أو تصرّفًا لطيفًا صدر عن شخص ما. في خبرتي أتعرّف إلى الحدث المسيحيّ اليوم فقط عندما أرى، في ما يحدث، ملامحَ يسوع الواضحة، أي أنّني أعرف أنّ ما يحدث إنّما هو بفضل يسوع الناصريّ، الذي ولد من مريم قبل ألفي سنة، ومات وقام وهو اليوم حيّ، لأنّه بخلاف ذلك لن يكون ذلك الشيء ممكنًا من الناحية الإنسانيّة. وهذا لا يعني بالضرورة أنّ عليه أن يكون شيئًا استثنائيًا، فقد يكون بادرة كرم بسيطة تبدو، بالنظر إلى سياقها، استثنائيّة حقا، أو قد يكون القدرة على البدء من جديد كلّ صباح حيث الحياة التي تقطع الساقين لا تنتج إلا شكوكًا وريبة».
ما هو المشترك بين هذه الرسائل؟ الانتصار على التجريد. فالمسيحية ليست أمرً مسبقًا مجرّدًا يسكن في عقولهم، بل هي حدث، كما قبل ألفي سنة، يتعيّن مشاهدته واتباعه، يصيبنا بالعدوى ويغيّرنا. كيف عرف هؤلاء الأشخاص المسيح؟ بسبب حدوثه في الخبرة، أمام أعينهم.
كيف يمكننا الخروج من الأيديولوجيا، ومن اختزال المسيحيّة إلى إيديولوجيا؟ فقط بفضل حدوث المسيح من جديد هنا والآن. إنّه فقط إعادة طرح المسيحيّة كحدث يمكنه أن ينتزعنا من التصوّر المسبق، من الإيديولوجيا.

ب) اختزال العلامة إلى مظهر
عندما تكون أفكارنا المسبقة أو أيديولوجيتنا هي نقطة الانطلاق في علاقتنا بالواقع،

يقول دون جوسّاني، يحدث اختزال ثانٍ: اختزال العلامة إلى مظهر. فالأيديولوجي تخنق وتقمع حثّ الواقع. «إذا استسلم الإنسان للأيديولوجيّات المسيطرة، [...]فعندها يحدث فصل [...] بين العلامة والمظهر؛ وهذا يستتبع اختزال العلامة إلى مظهر. وكلّما أصبحنا أكثر وعيًا بماهيّة العلامة، ازداد فهمنا [...]لكارثة اختزال العلامة إلى مظهر. والعلامة [كما قلنا دائمًا] هي خبرة عامل موجود في الواقع يذكّرني بشيء آخر. العلامة هي حقيقة قابلة للاختبار، ومعناها حقيقة أخرى»[110].

يستطيع كلّ منكم أن يفهم على الفور طبيعة الكارثة التي يتحدّث عنها جوسّاني: فكّروا في ما إذا اختزل طفلكم إلى مظهر كلّ لفتة تقومون بها، أنتم الآباء، تجاهه! فإذا توقّف عند ما يظهر، فلن يعتبره علامة على شيء آخر، أي على حبّكم له. «ليس منطقيًّا، ولكن جميع الناس يميلون بسبب ثقل الخطيئة الأصليّة عليهم لأن يكونوا ضحايا المظهر، ضحايا ما يبدو، لأنّه يبدو أسهل شكل من أشكال العقل. إنّ موقفًا معينًا للروح يذهب إلى شيء من هذا القبيل مع واقع العالم والوجود (الظروف، والعلاقة بالأشياء، والأسرة التي يجب أن تبنيها، وتربية الأطفال ...): فينعكس الأمر عليه، ويوقف قدرة الإنسان على البحث عن المعنى، الذي تستحثّ علاقتنا بالواقع الذكاءَ البشريّ حوله»[111].

في هذا السياق، يذكر جوسّاني فينكيلكراوت، الذي يقول مشيرًا إلى حنّة أرندت: «إنّ الإيديولوجيا [...] ليست القبول الساذج بالمرئيّ، بل إقصاؤه الذكيّ»[112]. فيعلّق جوسّاني قائلا: «إنّ الأيديولوجيا هي تدمير المرئيّ، والقضاء على المرئيّ كإحساس بالأشياء التي تحدث، وإفراغ ما يُرى، ويُلمس، ويُفهم. وبالتالي لا تعود لدينا أيّة علاقة بأيّ شيء»[113].

كلنا يعرف مدى سهولة انزلاقنا إلى هذا "الإقصاء" للمرئيّ، في إفراغنا لما يحدث، فلا شيء يعود يكلّمنا، ويصبح كلّ شيء سطحيًّا. حتى العلامات الأكثر لفتًا للانتباه تتحوّل إلى مظهر. لسنا الوحيدين، بل لدينا أسلاف لامعين.

لقد كان التلاميذ شهودًا على علامتين لافتتين حقًّا ليسوع: تكثير الأرغفة مرّتين.

---

[110] L. Giussani, *L'uomo e il suo destino. In cammino*, op. cit., p. 112.

[111] *Ibidem*, pp. 112-113.

[112] A. Finkielkraut, *L'umanità perduta. Saggio sul XX secolo*, Editoriale Atlantide, Roma 1997, p. 88; cfr. H. Arendt, *Le origini del totalitarismo*, Edizioni Comunità, Milano 1996, pp. 645, 649.

[113] L. Giussani, *L'uomo e il suo destino. In cammino*, op. cit., p. 113.

ولكن بعد بضعة أيّام، وبالطريقة التي يتصرّفون بها، يظهر الاختزال الذي قاموا به – ربّما دون وعي، كما يحدث لنا – لتلك الأحداث. «فنسوا أن يأخذوا خبزًا ولم يكن معهم في السفينة سوى رغيفٍ واحد». فحذّرهم يسوع قائلا انظروا وتحرّزوا من خمير الفرّيسيين وخمير هيرودس. فاعتقدوا أنّه يكلّمهم بهذه الطريقة لأنّ لديهم رغيفًا واحدًا فقط. فشرعوا في مناقشة «بعضهم لبعض إنّه ليس معنا خبز»[114]. إنّهم لم يدركوا الاختزال الذي قاموا به. من الواضح أنّ معجزة تكثير الأرغفة لم تصبح فرصة خبرةٍ بالمسيح، لزيادة معرفتهم به. والطريقة التي ناقشوا بها نقص الأرغفة تبيّن أنّهم، إذ توقفوا عند المظهر، لم يفهموا من كان ذلك الرجل الذي كان معهم.
أرجو الانتباه، لا يصلح في هذه الحالة التبرير الذي نستخدمه عادة: «لو كان المسيح أمامنا نحن لما كانت الغلبة للمظهر ولكان من السهل علينا التعرّف على المسيح». في هذه الرواية الإنجيليّة كان يسوع معهم على القارب، بلحمه ودمه. لكنّ حضوره هذا لم يدفعهم إلى التوقّف عن الجدال: لقد كان وجود يسوع على متن القارب أقلّ شأنًا من قلقهم إزاء نقص الخبز. إنّه لأمر مذهل!
كيف يساعدهم يسوع على النموّ، على الخروج من اختزال العلامة إلى مظهر؟ إنّه لا يقوم بمعجزة أخرى – فقد رأوا الكثير منها بالفعل ولم يفهموا، فما نفع معجزة أخرى؟ – ولا يشرح لهم من يكون. يحثّهم يسوع على عدم التوقّف عند المظهر ويتحدّاهم بأسئلته. يا لهول تصرّفه! «فعلم يسوع [بأمر مناقشتهم] وقال لهم: "لماذا تفكّرون أن ليس معكم خبز؟ أحتّى الآن لا تفهمون ولا تعقلون؟ أوَ حتّى الآن قلوبكم عمياء؟ لكم عيون أفلا تبصرون ولكم آذان أفلا تسمعون ولا تذكرون؟ إذ كسرت الأرغفة الخمسة للخمسة آلاف، كم قفة مملوءة كِسَرًا رفعتم؟". قالوا له: "اثنتي عشرة". "وإذ كسرت الأرغفة السبعة للأربعة آلاف، كم سلّة رفعتم من الكِسَر؟" قالوا له: "سبعة". فقال لهم: "فكيف حتّى الآن لا تعقلون؟"[115]. وبهذه الطريقة يتحدّاهم يسوع بأن يذهبوا إلى نهاية ما رأوه، حتى يتمكنوا من استخلاص معرفته من التجربة. إنّه يعلّمهم أن ينظروا بعمق إلى ما رأوه ويرونه. وإلا واصلوا اختزال أيّة معجزة أخرى يقوم بها.
يحثّ يسوع إذن التلاميذ على الاستخدام الكامل للعقل، فهذا هو ما يلزمهم كيلا يختزلوا العلامة إلى مظهر. والاستخدام الكامل للعقل ينطوي على موقف من الانفتاح

[114] مرقس ، 14-16.
[115] مرقس 8، 17-21.

(«ذلك الانفتاح الحيّ على الشيء الذي يصبح مودّة»)[116]، وهو الوضع الأصليّ الذي خُلقنا فيه. لذلك، يقول دون جوسّاني، «إنّ قلب المشكلة المعرفيّة البشرية لا يكمن [...] في قدرة خاصّة على الذكاء. [...] إنّ لبّ المشكلة هو حقًا الوضع الصحيح للقلب، [...] والأخلاق»[117]. فبدلًا من القلب المتصلّب، قلب من الحجر، لا يدع أيّ شيء ولا أحد يمسّه، قلبٌ من اللحم، منفتح، يسمح للواقع أن يصيبه. لأنّ الإنسان «يرى بعيني العقل لأنّ القلب منفتح–على، أي لأنّ المودّة تدعم فتح العينين [...].عين العقل ترى، بفضل دعم المودّة، والتي تعبّر عن لعبة الحرّيّة»[118].

لكنّ هذه القدرة على إيقاظ عقلهم (للتلاميذ) حتّى النهاية هي طريقة يتجلى فيها اختلاف المسيح، وتفرّده، و"ألوهيّته". تخيّلوا كيف كان عليهم أن يسألوا: «من يكون هذا القادر على فتح عقولنا بهذه الطريقة ويسمح لنا بإدراك معنى الأشياء التي رأيناها تحدث دون أن نفهمها؟». إنّها الخبرة نفسها التي مررنا بها نحن أيضًا، بعد ألفي عام، مع دون جوسّاني. فلو لم نتلق تربية على هذا الانفتاح، لو لم نتلق تربية مستمرّة، لما رأينا أيّ شيء، ولا حتّى ما هو ماثل أمامنا، من غير اختزاله.

وهكذا، أتاح عجزُ التلاميذ عن الفهم فرصة أخرى لهم لمعرفة المزيد عن يسوع. فمن دون حضوره لما فهموا. وحضوره، إذ فتح عقولهم، وأدّى بهم إلى موقف صحيح للقلب، جعلهم يعرفون طبيعة اللفتة التي قام بها المسيح. ونحن أيضًا يمكننا أن نعرف المسيح من حقيقة أنّه، ومن خلال الأداة الإنسانيّة التي يستخدمها، يجعلنا ننظر إلى الواقع من دون التوقّف عند المظهر. وإلا اختفى الله من أفق الحياة. لا لأنّ الله ليس موجودًا. فيسوع كان هناك بالفعل والتلاميذ رأوا معجزتين ملفتتين حقا! المشكلة هي أنّهم لم يكونوا منفتحين على التعرّف إلى العلامات حتى منبعها. ولذلك، إن لم يحدث حضوره الآن، وإن لم نكن على استعداد لدعمه، فإنّنا لن نرى شيئًا رغم كلّ الأناجيل وجميع نصوص دون جوسّاني المتاحة.

«أكتب إليك لأشكرك على المسيرة التي نقوم بها، لأنّ الانتماء إلى الحركة قد غيّر حياتي بشكل عميق. فقد أصبح انتمائي إلى الأخويّة علاقة راسخة أكثر فأكثر عمقا تحرّرني من صُوَري ومن صُوَر الذين حولي. كما لو أنّ "من أكون أنا" يمرّ بالضبط

---

[116] S. Alberto - J. Prades - L. Giussani, *Generare tracce nella storia del mondo*, Rizzoli, Milano 1998, p. 30.

[117] L. Giussani, *Il senso religioso*, Rizzoli, Milano 2010, pp. 40-41.

[118] S. Alberto - J. Prades - L. Giussani, *Generare tracce nella storia del mondo*, op. cit., p. 30.

عبر ذلك الانتماء. فهناك أجد نفسي وأعرف نفسي أكثر فأكثر بطريقة غير متوقّعة. في المرّة الأخيرة لقد أثرتني كثيرًا بحديثك عن الفرح، ولكنّني مرّاتٍ عديدة لستُ أنا من أقوم بالعمل الذي يسمح لي بالتعرّف إلى مصدر هذا الفرح». إنّه كما كان يحدث للتلاميذ. «هكذا فقط نستطيع أن نصبح في ألفة مع يسوع، وأقسم لك بأنّ هذا هو الأمر الأكثر إلحاحًا بالنسبة لي، لأنّني فقط عندما أعرفه، أعود حاضرة مع ذاتي، حاضرة وعاشقة لأنّني مرغوبة، وهكذا تبدأ الأشياء تعني لي شيئًا من جديد» – أي أنّ الحياة تصبح حياة أخرى –. «والعلاقة به تفوز بكلّ شيء».
ما الذي جعلها متأكّدة من أنّها وصلت إلى أصل اللقاء مع الحركة، إلى أصل ما تمّ منحه لها؟ حقيقة أنّ الأشياء تبدأ تعني لها شيئًا من جديد، وأنّها مليئة بالمعنى، مثل لفتة حبّ زوجتك نحوك أو نحو طفلكم. لقد وجدت نفسها حاضرة لنفسها، لذلك تعرّفت حقا إلى الواقع. الحدث الحاليّ للمسيح وحده يتغلّب على الإيديولوجيا، أي على اختزال ما نراه. «تميل الأيديولوجيا إلى تأكيد الظاهر كأمر ملموس، والظاهر هو ما نراه ونسمعه ونلمسه فقط. لكنّ طريقة نظر الإنسان هو العقل، الذي (إن تُرك على حاله) يغطّي علاقة الأنا بما يواجهه، فيوضح الشيء ويحكم عليه، أي يعترف به على أنّه إشارة إلى آخر؛ في الواقع، لا يمكن الحكم على شيء إلا إذا كان هناك عمق افتراضيّ»[119].

ج) اختزال القلب إلى شعور
يظهر الاختزال الثالث ممّا قلناه حتى الآن: إنّها مسألة اختزال القلب إلى شعور. من اللافت للنظر أنّ استفزاز يسوع للتلاميذ على متن السفينة كان: «أوَ حتّى الآن قلوبكم عمياء؟». إنّنا نفهم معنى كلمة "القلب" إذا أخذنا بالاعتبار السؤال التالي: «ألا تفهمون؟». بالنسبة إلى يسوع، كما بالنسبة لكلّ التقليد التوراتيّ، يملك القلب وظيفة إدراكيّة. فبدون القلب لا يمكننا أن نفهم. «إلى هذا اليوم – يقول سفر التثنية – لم يعطكم الربّ قلوبًا لتفهموا»[120]. إنّ استخدام القلب هو الذي يسمح بفهم الحقائق. لقد أدرك جوسّاني المسألة بعمق: «الحقائق – الحقائق التي تقوم بـ«إحياء الحدث الأصليّ» – يجب أن نقرأها بقلبنا، أي بعقلنا الملتزم عاطفيًّا»[121].
أمّا عكس العقل الملتزم عاطفيًّا، كما يذكر التمهيد الثالث من "الحسّ الدينيّ"، فهو

---

[119] L. Giussani, *L'uomo e il suo destino. In cammino*, op. cit., p. 114.

[120] راجع سفر تثنية الاشتراع 29، 3.

[121] L. Giussani, *L'uomo e il suo destino. In cammino*, op. cit., p. 66.

دماغ «مات ودُفن»[122] – يقول هذا بالضبط – إزاء ما يحدث، كما رأينا مع التلاميذ على متن السفينة. يقول يسوع لتلميذي عمّاوس: «يا قليلي الفهم وبطيئي القلب في الإيمان بكلّ ما نطقت به الأنبياء!»[123]. عندما نكون «بطيئي القلب»، فإنّ نظرتنا تكون قد «ماتت ودُفنت» عند حدوث الأشياء.

وبهذه الطريقة، يشير دون جوسّاني إلى عقدة الاختزال الثالث: «إنّنا نعتبر الشعور بدلًا من القلب كمحرّك أساسيّ، كعلّة عملنا». ماذا يعني هذا؟ أنّ «مسؤوليّتنا تصبح من غير طائل من خلال الاستسلام إلى استخدام المشاعر بشكل يطغى على القلب، وبالتالي اختزال مفهوم القلب إلى شعور. غير أنّ القلب يمثّل العامل الأساسيّ للشخصية الإنسانيّة ويعمل بهذه الصفة. أمّا الشعور فلا، لأنّ الشعور، إذا ما تناولناه في حدّ ذاته، هو بمثابة تفاعل، وهو في النهاية حيوانيّ»[124]. وكما كتب بافيزي: «لم أفهم بعد ما هي مأساة الوجود [...]. ومع ذلك فإنّ الأمر واضح للغاية: يجب أن نتغلّب على التخلّي الحسّيّ، ونتوقّف عن اعتبار الحالات النفسيّة غاية في حدّ ذاتها»[125].

يواصل جوسّاني: «يشير القلب إلى وحدة الشعور والعقل. وهو ينطوي على مفهوم حول عقل غير مكبوح، عقل وفق كامل مدى إمكانيّته، فالعقل لا يمكنه أن يعمل دون ما يُسمّى بالمودّة». لذلك فإنّ القلب – كوحدة بين الشعور والعقل – هو «شرط التحقيق السليم للعقل». لقد أثارتني دائمًا هذه العبارة التي كتبها جوسّاني: «ليكون العقل عقلا يُشترط أن تطغى عليه العاطفة فتحرّك الأنسان كلّه»[126]. من غير هذا، نرى كلّ شيء بطريقة مختزلة.

كيف نخرج من اختزال القلب إلى شعور؟ ما الذي يجعل التحقيق السليم للعقل ممكنًا؟ حضور محدّد. لا يتعلّق الأمر بالخضوع لتدريب معيّن. وحده الحضورُ الجذّاب عاطفيًا، سبق وقلنا هذا الصباح، أي الذي يملك القدرة على جذب كلّ عواطفنا لدرجة الالتصاق به، يمكنه توسيع عقلنا، وفقا لطبيعته الحقيقيّة من الانفتاح الكليّ على الواقع، كما حدث لتلميذي عمّاوس عند لقائهما بيسوع في الطريق. هذا الأمر، الذي يبدو من الصعب فهمه من الناحية الفكريّة، يمكننا فهمه بسهولة عندما يحدث. إنّ

---

[122] G. Giusti in L. Giussani, *Il senso religioso*, op. cit., p. 40.

[123] لوقا 24، 25.

[124] L. Giussani, *L'uomo e il suo destino. In cammino*, op. cit., pp. 116-117.

[125] C. Pavese, *Il mestiere di vivere*, Einaudi, Torino 1952, p. 35.

[126] L. Giussani, *L'uomo e il suo destino. In cammino*, op. cit., p. 117.

حضور الأمّ الذي يجذب كلّ مودّة الطفل يوسّع عقله. وهذا ما نراه في وجه الطفل المنذهل والمنفتح عندما تلقاه أمّه. وهذه النظرة المفتوحة، التي يثيرها حضور الأمّ الحنون، هو ما يسمح له بالتعرّف إلى والدته على ما هي عليه، بكلّ الحبّ العميق الذي تكنّه له. فلنعُد إلى تلميذي عمّاوس: «أما كانت قلوبنا مضطرمة فينا حين كان يخاطبنا في الطريق؟»[127]. عندما يحدث من السهل جدّا التعرّف إليه. لم يفهما في البداية. وعندما يصل، «يصفو الذهن»[128] وينطلق كلّ شيء من جديد. ممّ نعرف أنّهما فهما وأنّ اضطرام قلبهما ليست مجرّد عاطفة؟ من حقيقة أنّهما عادا «في تلك الساعة» إلى أورشليم. إنّ خطوة جديدة في الواقع هي ما يخبرنا دائمًا أنّ شيئًا ما قد حدث.

وحده القلب المُصمَّم والمُعاش كعقل ومودّة، أي غير المختزَل إلى شعور، يمكنه التقاط الحقّ والتعرّف إليه. ولكن لكي يستيقظ هذا القلب بالكامل، هناك حاجة لحضور: حضور الربّ. لا يستطيع قلب مستيقظ كهذا أن يغشّ عندما يكون أمام الحقيقة، وإلا ناقض نفسه. لذلك فإنّ مساعدة المسيح الحاسمة في مسيرة الإنسان هي في إيقاظ قلب الإنسان. فهو يعيد تشغيله، أحيانًا، ببضعة أسئلة فقط: «ألا تعقلون حتّى الآن؟»، فيمنع الكسل من الغلبة. في حدوثه، يوقظ المسيح قلب الإنسان بطريقة تمكّنه من التعرف على طبيعته المغايرة، أي على الحقّ، بحيث لا يمكن الخلط بينه وبين أيّ بديل آخر. وأيُّ تقليد للحقيقة، بمثابة تزييف لها دائمًا، يتمّ كشفه.

2. الحاجة إلى مكان يعيد إلينا النظرة الأصليّة

ممّا رأينا حتى الآن تظهر الحاجة إلى مكان يُعيد إلينا نظرة أصليّة منفتحة ويحافظ عليها باستمرار.

ما الذي يمكن أن تجنيه الاختزالات الموصوفة، التي تجعلنا ننظر إلى الواقع بطريقة قصيرة النظر؟ يتمّ التغلب عليها بفضل حدثٍ. من المفارقة أنّ هذه الاختزالات نفسها، التي نجدها تخنقنا في الكثير من الأحيان، قد تتحوّل إلى فُرص يُعلن فيها المسيح عن نفسه لنا، وبالتالي إلى فرص لمعرفته بشكل لا ينفصل عن الخبرة. للخروج من الاختزالات الموصوفة، نحتاج بالفعل إلى مصادفة حضوره. وهذا يعني أنّنا نعرف المسيح من داخل الخبرة التي نرى فيها الغلبة على الاختزالات.

---

[127] راجع لوقا 24، 32.

[128] Cfr. «La mente torna», parole G. Mogol, musica L. Battisti.

بتحريره إيّانا من قصر النظر الذي عادةً ما ننظر به إلى الواقع، يستنهض المسيح "أنا" ذا قدرة على معرفة لم تكن معروفة من قبل. لذا، فإنّ البديل الحقيقيّ الوحيد للأيديولوجيا ليس عقيدة أو أخلاقًا – هي غير قادرة على توسعة العقل، إذ قد يكون لدينا الكثير من العقيدة أو قد نصبح جيّدين أخلاقيّا ونبقى منغلقين – بل "أنا" جديد، أوجده حدث، أي "أنا" قادر على ألا يتعثّر في الآليات المختزلة لطريقة معرفتنا المعتادة (كما حدث للفتاة الكاتالونيّة التي ذكرناها مرّات عديدة، والتي كشفت النقاب بمناسبة الاستفتاء عن الادّعاء الشموليّ للأيديولوجيا).

كم مرّة قلنا لأنفسنا إنّ الأنا يستيقظ من سباته، من اختزاله، عبر لقاء! «يجد الشخص نفسه في لقاء حيّ»[129]. والشخص المولود في اللقاء هو مخلوق جديد. وهذا ما نراه أوّلا من خلال قدرته على معرفة أنّه يكتسب. «المخلوق الجديد لديه عقل *mens* جديد (*noûs* باليونانية)، والقدرة على معرفة الواقع مختلفة عن قدرة الآخرين»[130]. هذا "الاسترجاع" للأنا لا يحدث في البداية فقط ومرّة واحدة فحسب. فكما رأينا في قصّة شعب إسرائيل وفي تجربة التلاميذ، نحن معرّضون على الدوام لخطر الوقوع في اختزال أنانا ونظرتنا إلى الواقع. فكيف يمكن لهذا المخلوق الجديد الذي يعرف الواقع بشكل مختلف أن يبقى حيّا، لحظة بعد أخرى؟ يمكنه أن يحدث إذا بقي المسيح معاصرًا، في مكان محدّد، ونحن لا ننفصل عنه. لقد سبق وذطرنا هذا الأمر: «إنّ المعرفة الجديدة تعني ضمنًا [...] أن نكون في معاصرة مع الحدث الذي يولّدها ويدعمها باستمرار»[131]. وهذا نا برهنت عليه الرسالة الأولى التي قرأتها بعد ظهر اليوم: «إنّ الانتماء إلى الحركة قد غيّر حياتي بشكل عميق [...]، إنّه حرّرني من صُوَري ومن صُوَر الذين حولي. كما لو أنّ "من أكون أنا" يمرّ بالضبط عبر ذلك الانتماء». ومن أجل الحصول على هذه القدرة الجديدة على المعرفة، من الضروريّ عدم الابتعاد عن الحدث الذي يولّدها. «بما أنّ هذا الأصل ليس فكرةً بل مكان، وواقع حيّ، فإنّ الحكم الجديد ممكن فقط ضمن علاقة مستمرّة بهذا الواقع، أي مع الرفقة البشريّة التي تطيل الحدث الأصليّ في الزمن». أمّا «من يفضّل تحليلاته أو استنتاجاته فسيتبنّى في نهاية المطاف طريقة تفكير العالم». لذلك، يختتم دون

---

[129] L. Giussani, *L'io rinasce in un incontro (1986-1987)*, Bur, Milano 2010, p. 182.

[130] S. Alberto - J. Prades - L. Giussani, *Generare tracce nella storia del mondo*, op. cit., p. 74.

[131] *Ibidem*, p. 75.

جوسّاني، فإنّ «البقاء في الموضع الأصليّ الذي يثير فيه الحدث المعرفة الجديدة هو الإمكانيّة الوحيدة للتعاطي مع الواقع دون تصوّرات مسبقة، وفقًا لمجموع عوامله»[132].

إذا كان هذا الحضور الذي يعيد فتح أعيننا لا يحدث باستمرار في حياتنا، إذا لم نتعرّف عليه ولا ننتمي إليه، فإنّ نظرتنا ستنكمش وسوف ينتهي بنا الأمر إلى إنكار الوجود الملموس لله في العالم، كما يقول البابا. وهذا لا يخصّ الآخرين وحدهم، بل يخصّنا نحن قبل غيرنا.

عندما نختبر معرفة مختلفة، جديدة عن حقّ، فمن السهل إدراك هذا الاختلاف كدليل على حضوره الآن. هناك أناس بدون خلفية مسيحيّة يدركون بطريقة مدوّية وحارقة اختلاف حياة أولئك الذين يحضر المسيح من خلالهم. وهم يشهدون لنا بكلّ الدهشة التي يثيرها هذا الاختلاف في حياتهم، لدرجة تغييرها.

فتاة من أصل هنديّ تعرّفت إلى الحركة في مدريد، بعد أن كانت في إيطاليا بفضل برنامج إيراسموس (للتبادل الثقافي) وبعد ذهابها إلى الهند ومن ثمّ إلى إنجلترا، في محاولة للهروب من كلّ ما حدث لها، تكتب إلى دون ناتشو، مسؤول الحركة في إسبانيا:

«ذهبت إلى الهند، لأعيش فلسفة مشهورة. قرّرت أن أذهب إلى هناك وأنا أعتقد بأنّني سأجد السعادة. لكنّني لم اجد شيئًا. لقد كانت خيبة أمل مستمرّة. ثابتة. ظننت أنّهم يستطيعون أن يشرحوا لي بشكل أفضل من أكون، لأنّ لديّ دائمًا شبه عقدة في نفسي. لا شيء. الشيء الغريب هو أنّني حاولت كلّ يوم نسيان ما حدث لي، لكنّ أول أشخاص كنت أفكّر بهم عندما استيقظ في الصباح كانوا أعضاء شراكة وتحرّر التين كنت قد التقيتهم (أنت، أنيتا، جو، خافي، مارتي، إيمي، دون كارّون). حاولت بجهد محو هذه الأفكار، لكنّها كانت دائمًا أول ما يتبادر إلى ذهني عندما أفتح عينيّ. ثم قرّرت أن أذهب إلى لندن. لكنّ الشيء نفسه حدث هناك. كلّ الوقت مع هذه العقدة في نفسي، والتي لم تختفِ بأيّ شكل من الأشكال. تعرّفت إلى العديد من الشبّان، ولكن لا شيء. عندما كنت برفقة الشبّان الآخرين كنت أفكّر بجو فقط»، وهو شابّ كانت قد تعرّفت إليه هنا في إيطاليا، وبدأت معه علاقة، «كيف كان يحبّني، كيف كان يعاملني، كيف كنت أشعر وأنا معه بأنّني أغلى شخص في العالم، وكيف كان ينظر إلى كلّ تفصيل من تفاصيلي بطريقة مختلفة تمامًا. لذلك، عندما جاء جو إلى لندن، قلت له إنّني أرغب بالعودة إليه» – فقد كانت قد هجرته هو أيضًا –، «لكنّه أجابني

[132] *Ivi*.

بلا، لأنّه كان على وشك أن يكرّس حياته لله وحده. والفترة الأخيرة بالذات، التي كان يعيش فيها هذه العلاقة الحصريّة بالله، كانت الفترة التي أحبّني فيها أكثر من أيّ وقت مضى. فما كان يعيشه كان شيئًا حقيقيّا للغاية لدرجة أنّه غيّره بهذه الطريقة، حتى لو لم أفهم ذلك. وبعد هذا الوقت اللندنيّة، طلبت منّي والدتي بشكل صريح عدم الاتّصال بها بعد الآن، لأنّها لم تعد قادرة على تحمّل الألم الذي أثاره غياب والدي» – الذي كان قد توفّي قبل بضع سنوات – «ولم تكن قادرة على تحمّل شخص مثلي يذكّرها به كثيرًا. في بعض الأحيان يعميني الألم لدرجة أنّني لا أستطيع القول إنّ هناك شخصًا في مكان ما يرحّب بي».

لكنّ الحسابات لا تتطابق! ومع ذلك، تتابع الرسالة «هناك شيء لا أستطيع إنكاره ويستمرّ في الظهور أمامي بشكل لا يصدّق. إذا فكّرت بطريقة ما في شخصٍ أستطيع أن أقول عنه إنّه يحبّني، فإنّني أفكّر بكم. أذكر أنّني في بداية قصّتي، عندما كمن أقرأ ما قاله يسوع وقام به، لم أكن أشعر بأنّها غريبة. فقد رأيت واستمعت إلى أشخاص كانوا مثله، وتحدّثوا مثله، وعاملوا الناس من حولهم كما كان يسوع يعاملهم، وهذا هو الشيء الوحيد المختلف الذي تملكونه مقارنة بجميع الآخرين. وبدأت أدرك الآن أنّه لا يوجد فيكم شيء مختلف عن بقيّة الناس، إن لم يكن اللقاء بالمسيح! وكلما تساءلت عن سبب قيامكم بالأشياء، كان عليّ أن أعترف بأنّ كلّ ما تفعلونه إنّما يرتبط بالعلاقة به. أنت [يا ناتشو] لماذا اخترت ألا تتزوّج، وألا تنجب أطفالا؟ قد يعتقد أيّ شخص آخر أنّك فقدت عقلك، لكنّك لست غبيًا. في هذه الحقائق يقترب منّي المسيح مرّة أخرى، ففيها أرى أنه لا يمكن أن يكون اختراعًا، أو كذبة، حتى لو كنت أشكّ في ذلك ألف مرّة. هذه هي الحقائق التي لا تجعلني أفقد الأمل. كلّ يوم أستيقظ وأطلب رؤية أنّه لا يتركني وحدي. لا أستطيع الادّعاء بأنّني لوحدي. لا أستطيع. يفاجئني أن أخبركم بالحقيقة. أعتقد أنّ المسيح كان مثلكم، كان شخصًا يساعد الآخرين على فهم أنفسهم، على النظر إلى قلوبهم وعلى فهم من يكونون: كان يضيع أحدهم، وعندما يلقاه يعود ويجد نفسه. مثلما حدث لي عندما التقيت بكم: فأنا أفهم نفسي، أعرف أكثر عن نفسي، من قبلُ كنت أشبه بالميّتة. لا أستطيع أن أنكر أنّني قد اعتُبرت وعوملت كما عامل المسيح الناس ونظر إليهم، مثل زكّا الصغير، الذي لم يكن يساوي شيئًا، مثلي. والحقيقة هي أنّ الشيء الوحيد – الوحيد – الذي يشترك فيه كلّ هؤلاء الناس هو أنّهم جميعًا – جميعًا! – لديهم علاقة شخصيّة ويوميّة بالمسيح. أدركت شيئًا آخر. هناك نقطة صغيرة تتوقّف عليّ. إنّها تبدو غير ذات أهمّيّة، لكنّها كلّ شيء: الاعتراف بكلّ ما قلته لك. إنّ شخصي على المحكّ في قرار الاعتراف بأنّ كلّ هذا هو من أجل المسيح، أو الاعتقاد بأنّ جميع الأشخاص الذين لديهم هذه

الخصائص هم في المكان نفسه بمجرّد الصدفة. أحيانًا أرى كيف أخلط بين كلّ شيء وأخون كل ما عشته من قبل. يبدو الأمر كما لو أن نسياني للخطوات يجعلني أكثر تعاسة، يجعلني حتّى أكثر غباء. ولكن لا أستطيع أن أنسى ما اختبرته، وما هو موجود في داخلي. وأنتظر أن يعود ويحدث معي، أبحث عنه، أنظر إلى الناس آملة بأن تعود تلك النظرة للظهور، أن أعود وأرى تلك العيون التي لا أستبدلها بأيّ شيء، تلك العيون التي تجعلني أدرك أنّني موجودة لسببٍ محدّد، التي تحبّني حتى لو كنت لا أعرف أيّ شيء. آمل بأن أراه في كلّ شخص ألتقي به، وأحيانًا أنظر دون وعي إلى وجوه الجميع، حتى الغرباء منهم، لأرى ما إذا كنت أجد شيئًا منه، شيئًا منه هو، يجعلني أعود لأرى أنّه موجود، وأنّه موجود لأجلي. لأنّ الحياة، حياتي، هي احيانًا عديدة أكثر قلقا، بل هي مؤلمة، منذ أن التقيت به، لكنّها أيضًا أكثر من ذلك: إنّها حيّة. كما لو أنّه مصدر حياتي: كنت ميتة وأنا الآن أحيا».

هذه شهادة على "أنا" عاد للحياة بفضل اللقاء بالمسيح. لم تكن هذه الشابّة تعرف شيئا عن المسيحيّة، ولكن بعد لقائها بالأصدقاء في الحركة يمكنها أن تكون مع الحقّ في عالم انهار فيه كلّ يقين، وفاجأت نفسها تبحث عن المسيح في كلّ شخص تلتقي به، دون الخوف من التعرّض للتلوّث، وهي تعيش فقط من ذهول حضوره، من الحماسة له المتجدّدة باستمرار. «هذه هي المسيحية في التاريخ»، كما درسنا في مدرسة الجماعة: «طلوع فجر بشريّة جديدة، جماعة بشريّة مختلفة، أي جديدة، أكثر حقيقة»[133].

إنّ الانتماء إلى «قصّة خاصّة» – كما هي الحياة في الحركة – قد أتاح لهذه الفتاة اكتشافًا لذاتها («فأنا أفهم نفسي، أعرف أكثر عن نفسي، من قبلُ كنت أشبه بالمَيتة [...] كنت ميتة وأنا الآن أحيا») لم تستطع طرحه بعيدًا على الرغم من قيامها بكل شيء لنسيان ما حدث لها. فكلّما بحثت، وكلّما التقت بأشخاص، وكلما عاشت، بانَ اختلاف ما التقت به. إنّ القلب يُبرهن، في تجارب كهذه، عن كلّ موضوعيّته! لا يمكن للمرء استبدال المسيح بأيّ متعة رخيصة، ونظرته بأيّ نظرة أخرى، وحبّه بمحاكاة للحبّ. إنّها لمثيرة للإعجاب عدم اختزاليّة المسيح التي تبرهن عنها كلّ هذه الأمور.

ولكن لكي تقود كلّ هذه العلامات إلى اليقين حوله، كان من الضروريّ أن تكون هناك مسيرة تعايش مع الأشخاص الذين أثاروا ذهولها وصدق الاعتراف بالنقطة التي كان يشترك فيها جميع أولئك الذين أذهلوها. على الرغم من رفضها الاعتراف

[133] L. Giussani, *Perché la Chiesa*, op. cit., p. 242.

بأنّ المسيح قد غيّر كلّ الناس الذين عرفتهم، وعلى الرغم من عدم انسجامها، إلا أنّ العلاقات الوحيدة التي كانت تتركها عاجزة عن الكلام كانت تلك التي تربطها بالأشخاص الذين تتحدّث حياتهم عن المسيح. فهي تعرّفت إلى المسيح لأنّها لم تنفصل عن تجربتها. وقد قادتها هذه التجربة إلى الوعي بأنّ الأشخاص الذين التقت بهم كانوا يملكون شيئًا لا وجود له في أيّ مكان آخر ولا يمكن نسبه إلى قدراتهم البشريّة. كان "شيئًا" لم تكن لتتخيّله أبدًا، ولم تكن لتنكره، سمعت عنه منهم، وقرّر خطيبها السابق تكريس حياته له: المسيح. لقد أدركت أنّ الاعتراف بهذا "العامل" لا يمكن تفويضه لأيّ شخص آخر، بل يمكن أن يكون اعترافًا منها فقط. ومنذ ذلك الحين واصلت البحث عن المسيح في كلّ نظرة، وفي أيّ شخص التقت به.

انطلاقًا من لقاء، يُعترف بأنّ المسيح هو قلب الحياة. كتبت صديقة أخرى: «في إحدى الأمسيات، عدتُ إلى المنزل بعد خدمتي في "بنك الطعام" وبدأت بإخبار زوجي كيف سارت الأمور. وفي نقطة معيّنة، قال لي: "أنا محظوظ حقًا بالعيش معك: لا يفوتك جزء واحد من يومك، فأنت تطلبين الأفضل وتقومين به دائمًا، ولا تكتفين بذلك مطلقًا فتسألين نفسك عن كلّ ما يحدث ذلك. بالنسبة لي هذا يُحسد عليه! أودّ أن أعيش مثلك أنا أيضًا". وفي تلك اللحظة انتابني شعور بالقلق وأجبته على الفور: "انظر، إنّها ليست مهاراتي، أنا لست شاطرة! أنا على هذه الحال لأنّني قابلت يسوع، الذي غيّر حياتي، وهذا يجعلني أنظر إلى كلّ شيء بهذه الطريقة التي تقول إنّها رائعة وإنّك ترغبها أنت أيضًا. فرفقة الحركة تجعل المسيح حيّا وتجعلني حيّة". في تلك اللحظة، فهمت ما معنى معرفة المسيح في تجربتي: لا يعني أن أعرف شخصًا غريبًا عن حياتي، بل الاعتراف به كحقيقة نفسي! لأنّني لا أستطيع أن أفكّر في نفسي، بكيف أعيش، بالأسئلة التي لديّ، بما أقوم به، من دونه؛ لا من دون التفكير به، بل من دونه! لا أستطيع أن أقول: "أنا" بدونه! كما يقول عنوان رياضة العام الماضي: "قلبي سعيد لأنك، أيّها المسيح، تحيا!"».

إنّ الجواب العمليّ والوظيفيّ والفعّال الوحيد على الحالة التي وصفتها للتوّ – والتي تتميّز بالاختزالات الثلاثة التي أبرزها دون جوسّاني – والتي ينظر فيها إلى الله، إلى المسيح، على أنّه مجرّدٌ وغريبٌ عن الحياة، هو المسيحيّة كحدث. «هأنذا آتي بالجديد فينشأ الآن، أفلا تعرفونه؟»[134].

كيف يسهّل علينا السرّ الإلهيّ التغلّب على التجريد الذي نحيط به المسيح في الكثير

[134] سفر إشعيا 43، 19.

من الأحيان؟ من خلال الكنيسة، مكان إيصال الحقيقة، والتي أداتها هي المعجزة. «المعجزة هي [...] حدث، شيء يحدث، لم يكن يتوقّعه المرء، ولا يستطيع المرء أن يفسّر كيف يحدث، ولكنّه يحدث، وهو محتوى حدثٍ يفرض عليك التفكير في الله». وأكبر معجزة هي تغيير الإنسان، فهو إنسان مكتمل: انفتاح القلب والعقل، نظرة إلى الذات والآخرين، مجّانيّة، فرح، خصوبة، قدرة على البناء، لا يمكن تصوّرها كلّها. «كلمات وحقائق مستحيلة. هذه هي المعجزة. حضورات هي معجزة». يقدّم دون جوسّاني مثال الأم تيريزا ويضيف: «كلمات وحقائق، حضور بشريّ لا يمكن تصوّره. نقيّة، متماسكة، قويّة، تبقى في هشاشتي: إنّ إنسانيّتك هي مثل إنسانيّتي، ولكن في إنسانيّتك يزهر شيء يأتي من شيء أكبر [...] أي معجزة. إنّه واقع أراه وأسمعه وألمسه، [...] ولكنّني لا أستطيع اختزاله بما أراه وأسمعه وأمسّه، وهو يعيدني بالضرورة إلى شيء آخر. عليّ أن أنكر ذلك الواقع بإنكاري ما يشير إليه. وإذا قمت باختزاله، فسوف أبيده»[135].

لكن لماذا، رغم رؤيتنا كلّ هذه الأشياء التي تحدث، يحدث لنا في مناسبات عديدة أن نكون مثل أولئك الذين يوبّخهم يسوع؟ «بماذا أشبّه هذا الجيل؟ يشبه صبيانًا جلوسًا في السوق يصيحون بأصحابهم قائلين زمّرنا لكم فلم ترقصوا، نُحنا لكم فلم تلطموا!. جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب فقالوا إنّ به شيطانًا، وجاء ابن الإنسان يأكل ويشرب فقالوا هوذا إنسانٌ أكول شرّيب للخمر محبّ للعشّارين والخطأة. وتبرّأت الحكمة من بنيها. حينئذ طفق يقرّع المدن التي كان فيها أكثر قوّاته لأنّهم لم يتوبوا، أنِ الويل لك، يا كورزين! الويل لك يا بيت صيدا. لأنّه لو صُنع في صور وصيدا ما صُنع فيكما لتابتا من قديم بالمسوح والرماد»[136].

من المذهل، بعد هذا اللوم، أن يقول يسوع: «أعترف لك، يا أبتِ، ربّ السماوات والأرض، لأنّك أخفيت هذه عن الحكماء والعقلاء وكشفتها للأطفال. نعم، يا أبتِ، لأنّه هكذا حسُنَ لديك. كلّ شيء قد دُفع إليّ من أبي. وليس أحدٌ يعرف الابن إلا الآب ولا أحد يعرف الآب إلا الابن ومن يريد الابن أن يكشف له»[137].

الجميع أمام الحقائق (وكذلك نحن). كان من المنطقيّ إخضاع العقل للخبرة، بعد أن شاهدوا العديد من المعجزات التي قام بها يسوع، لكنّ الحكماء والعقلاء غير مستعدّين

---

[135] L. Giussani, «Alla ricerca di un volto umano», *Tracce - Litterae Communionis*, gennaio 1996, pp. X, XII-XIV.

[136] متى 11، 16-21.

[137] متى 11، 25-27.

لهذا الأمر بالتحديد. فهم لا يتعرّفون إليه ليس لأنهم يفتقرون إلى المعجزات، بل لعدم وجود استعداد لديهم لإدراك هذا الأمر.

3. إن لم تعودوا كالأطفال

هذا، إذن، ما هو مطلوب: أن نكون كالأطفال. تجاوز منطق الحكماء، المعاكس لمنطق الصغار. لهذا السبب يبدو يسوع قاطعًا، كما رتّلنا: «إن لم تعودوا كالأطفال ...»[138]. «من لا يقبل ملكوت الله مثل صبيّ فلا يدخله»[139]. ولكن كيف يمكنني، أنا البالغ، أن أعود طفلًا؟ إنّه سؤال نيقوديموس ليسوع: «كيف يمكن أن يولد إنسانٌ وهو شيخ؟ ألعلّه يقدر أن يدخل جوف أمّه ثانية ويولد؟» يتعجّب يسوع من السؤال، ومن أنّ رجلًا ذكيًا مثل نيقوديموس لا يفهم مدى المسألة: «أتكون معلّمًا في إسرائيل ولا تعلم هذه الأمور البسيطة؟»[140].
إننا أمام نقطة أساسيّة، كما يذكّرنا دون جوسّاني: «إنّ المسألة الكبيرة هي العودة إلى الأصل، المسألة الكبيرة هي العودة إلى كما خلقنا الله. في الواقع ما هي الأخلاق؟ الأخلاق هي العيش في الموقف الذي خلقنا الله فيه. وحده من يكون في هذا الموقف يعترف بحضوره»[141]. لذلك يلاحظ فون بالتازار: «إنّما البساطة هي مقدّمة كلّ الباقي!»[142]. فمن دونها لا ندرك ما يحدث، لا ندرك الحقائق التي تحدث أمام أعيننا، فنحن لا نعترف بها كعلامات لشيء آخر، والنتيجة الحتميّة هي أنّ الحقائق تصبح عديمة الفائدة، أي أنّها لا تخدم زيادة معرفة المسيح، والألفة معه.
بهذه الدعوة لا يطلب منّا يسوع، بالطبع، أن نبقى للأبد في حالة طفوليّة. فعندما أشار المسيح إلى الطفل كنموذج، «من الواضح أنّه لم يضع الطفوليّة كمثل مثاليّ، ولكن انفتاح الروح الذي تضمنه الطبيعة تلقائيًا في الطفل، من حيث أنّه شرط لتطوّر

---

[138] C. Chieffo, «Canzone di Maria Chiara», in *Canti*, op cit., p. 189.

[139] مرقس 10، 15.

[140] راجع يوحنا 3، 10.4.

[141] L. Giussani, *Si può vivere così?*, Rizzoli, Milano 2007, p. 219.

[142] H.U. von Balthasar, *Se non diventerete come questo bambino*, Piemme, Casale Monferrato (AL) 1991, p. 9.

الإنسان، وهو في الشخص البالغ، مثله مثل كلّ قيمة، إنجاز شاقّ»[143]. إنّه يبدو مستحيل البلوغ بسبب هذا الجهد، كما إنّه من المستحيل أن يولد المرء مرّة أخرى عندما يكون مسنًا، فيدخل من جديد في رحم أمّه.
لكنّ يسوع نفسه يشهد بأنّه ليس من المستحيل العيش كبالغين مثل الأطفال. «كلّ كلماته ولفتاته تكشف أنّه [يسوع] ينظر إلى الآب بالذهول الدائم للطفل: "الآب أعظم منّي" (يوحنا 14،28). [...]. [يسوع] لا يفكّر أبدًا في امتلاك أصله [...]. فهو يعرف أنّه عطيّة أعطيت لنفسه، وأنّه لن يكون موجودًا من دون ذاك الذي يحرم نفسه من العطيّة حتّى ولو وهب نفسه فيها. ما يعطيه الآب هو أن نكون ذواتنا، الحرّيّة»[144]. يعرف يسوع دائمًا أنّه معطى من الآب. وهذه العطيّة تملأ الابن بالتعجّب والذهول والامتنان. «في الواقع، إنّ بادرة النقل الأبديّ [التسليم] من الآب إلى الابن موجودة باستمرار، وهي ليست منتهية بالكامل [شيء ماض، انتهى] ولا واجبة [...]. وحتّى لو كانت ذاكرة لا حصر لها، إلا أنّها تبقى على الدوام عرضًا جديدًا، بشكلٍ ما انتظارًا بثقةٍ ودودة لا حدود لها. الطفل يسوع يندهش بالتأكيد من كلّ شيء: من وجود أمّه التي تحبّه، لمن وجوده هو، ومن كلا الوجودين، من وجود جميع المخلوقات في العالم، من أصغر زهرة حتى السماء اللامتناهية. ومع ذلك، فإنّ هذه الدهشة تنبع من الدهشة الأعمق بكثير للابن الأزليّ الذي يندهش في روح الحبّ المطلق من الحبّ نفسه الذي يسيطر ويهيمن على كلّ شيء. "الآب أعظم"»[145]. "هذا الوعي للآب هو الذي كان واضحا في كل لفتة له. كما يقول جوسّاني، «يسوع الناصريّ الإنسان – الذي حلّ عليه سرّ الكلمة، وبالتالي دخل في طبيعة الله (ولكن كانت هيأته كهيئة جميع البشر تمامًا) –، هذا الرجل لم يروه يقوم بأيّ لفتة من دون أن يدلّ شكلها على وعيه للآب»[146].
لكنّ يسوع ليس حالة معزولة، كما يذكر فون بالتازار: «من أعظم القدّيسين يمكننا أن نستنتج على الفور أنّه لا يوجد تضارب بين البقاء أطفالا [...] والنضج. [...]

---

[143] L. Giussani, *Il senso di Dio e l'uomo moderno*, Bur, Milano 2010, p. 28.
[144] H.U. von Balthasar, *Se non diventerete come questo bambino*, op. cit., p. 44.
[145] *Ibidem*, pp. 45-46.
[146] L. Giussani, «Un uomo nuovo», *Tracce-Litterae Communionis*, marzo 1999, pp. VII-IX.

[فالقدّيسون] يحفاظون على شباب عجائبيّ حتّى في سنّ متقدّمة»[147]. لقد رأيناه جيّدا في دون جوسّاني. والبابا يدعونا إلى دعم هذه الحضورات: «عاشر الأشخاص الذين حافظوا على قلبهم كقلب طفل»[148]. ما الذي جعل كونهم مثل الأطفال ممكنًا لهم؟ عند هذا الحدّ نستطيع أن نفهم إجابة يسوع لنيقوديموس: «الحقّ الحقّ أقول لك، ما لم يولد الإنسان من الماء والروح، فلا يستطيع أن يدخل ملكوت الله»[149].

أن نصبح أطفالًا، أن نولد من جديد هو أن نولد من الروح، الذي نقبله في المعموديّة. إن تواصل روحه هو الذي يجعلنا أبناء كما أنّ المسيح هو الابن، أي أبناء في الابن. أن نكون أبناء في الابن يعني أن الحصول على كل شيء كعطيّة، دون الوقوف عند المظهر، أي أن نعترف بأنّ كلّ شيء يعطيه الآب. إلى هنا يريد أن يقودنا كلّ الطريق الذي رافقنا فيه الله ولا يزال، ليكون بإمكان كلّ ما يحدث أن يقودنا إلى العلاقة معه، بفضل الألفة مع المسيح، ومن خلال المسيح مع الآب، لا شيء يضيع في حياتنا. بدون هذه المعرفة، على العكس من ذلك، ليس لدينا ذاك الاتساق الذي يسمح لنا بأن نواجه الواقع بيقين، بسلام، وبنظرة جديدة وخصوبة.

إنّ الاعتراف بأنّ كلّ شيء يعطيه الآب يغيّر أيضًا طريقتنا في تصوّر التحوّل المدعوّون إليه: «إنّ المسار الأخلاقيّ هو ظهور التماسك، الذي نحن عاجزون عنه [...]. والتماسك الأخلاقيّ الحقيقيّ هو حيث يندهش المرء. يندهش ممّا يحدث فيه، من العطيّة التي تلقاها»[150]. عندما لا نختزل ما يُعطَى لنا، يظهر كلّ شيء كفرصة للاعتراف بالله حاضرًا في الواقع: لذلك يمكن أن تزداد ألفتنا به أكثر فأكثر كلّ يوم، وهو يقين في حضوره الذي يسمح لنا بعدم الاختناق في الظروف، ويجعلنا أحرارًا، ليس بطريقة وهميّة ولكن حقيقيّة. ويمكننا النظر إلى أشياء في حياتنا لم نرغب أبدًا في النظر إليها، كما تكتب هذه السيّدة: «يا صديقي! أريد أن أخبرك أنّني سأغادر لبضعة أيام غدًا مع زوجي. في غضون أيام قليلة تصادف الذكرى السنويّة لمقتل والدي. لم أذهب قط في الثلاثين عامًا الأخيرة، لأنّني قبل أن ألتقي بك لم أكن أنظر إلى هذا الجرح، لم أكن أتحدّث إلى أحد، ما عدا الأصدقاء الأقربين. ولكن في هذه السنوات الأخيرة، ومن خلال وفاة ابني أيضًا، رأيت نموّ ألفةٍ غير متوقّعة مع

---

147 H.U. von Balthasar, *Se non diventerete come questo bambino*, op. cit., p. 41.

148 البابا فرنسيس، المقابلة العامة، 20 أيلول / سبتمبر 2017.

149 يوحنا 3، 5.

150 L. Giussani, *Qui e ora (1984-1985)*, Bur, Milano 2009, p. 436.

المسيح. لذلك أنا لم أعد أخاف وسأغادر، ولكنّني سأرى الأماكن التي ترعرعت فيها وحيث كنت أنتظره هو. ومن يدري ماذا سيجعلني أكتشف ... شكرًا لصداقتك وهي هديّة عظيمة أراد الله أن يعطيني إيّاها».

لقد دخل يسوع التاريخ للتغلّب على كلّ خوف، وكلّ عزلة، وكلّ عقبة بيننا. هذا اللقاء الحقيقيّ مع المسيح في التاريخ هو ما يحتاجه عالمنا، الذي تحدّده أكثر فأكثر المخاوف وعدم الثقة. فمن خبرة حضوره الظافر والمحوّل يولد كلّ زخمنا. هذا ما يذكّرنا به دائمًا دون جوسّاني: «إنّ معرفة قوّة يسوع المسيح هي السبب العميق لكلّ لفتة من لفتات حضورنا الاجتماعيّ والتواصليّ في العالم»[151]، وهو ما ينتظره الجميع. «عندما يتواجد مثل هذا الحضور في كلّ علاقات الحياة، وعندما تتوقّف عليه جميع العلاقات، وعندما يتمّ حفظها والحكم عليها وتنسيقها وتقييمها واستخدامها على ضوء ذلك الحضور، تكون لدينا ثقافة جديدة. هذه الثقافة تنشأ إذن من الموقف الذي يتبنّاه المرء تجاه هذا الحضور غير العاديّ والحاسم بالنسبة للحياة»[152].

لذلك لا ينخدعنّ أحدٌ: إنّ معرفة يسوع التي يحثنا عليها دون جوسّاني ليست للانسحاب من الواقع، ومن الظروف، بل لملء كلّ لفتة وكلّ نشاط من أنشطتنا «التشاركيّة والعمليّة والخيريّة والثقافيّة والاجتماعيّة والسياسيّة» من حضوره. بهذه الطريقة تبقى البداية، ولا تصبح من الماضي: «في البداية كنّا نبني [...] كنّا نحاول البناء على شيء ما يحدث استحوذ علينا. وعلى الرغم من سذاجة وعدم تناسب هذا الموقف بشكل صارخ، إلا أنّه كان موقفًا صافيًا»[153]. ومن خلال عيشنا كلّ بادرة من داخل انتمائنا إلى المسيح، سنزيد من معرفتنا به أكثر فأكثر وسيكون لدينا المزيد والمزيد من الأسباب للوثوق به.

يمكننا الآن أن نفهم بشكل أكثر وعيًا مدى دعوة البابا فرنسيس التي وجّهها من البيرو: «أشجّعكم [...] على الانتظام [...] كجماعات كنسيّة تعيش حول شخص يسوع [...] ليس الخلاص عامًّا، ولا مجرّدًا. فالآب ينظر إلى الناس الحقيقيّين، ذوي الوجوه المحسوسة والقصص الحقيقيّة، ويجب على جميع الجماعات المسيحيّة أن

---

[151] L. Giussani, «Storia di liberazione», in H.U. von Balthasar - L. Giussani, *L'impegno del cristiano nel mondo*, op. cit., p. 140.

[152] S. Alberto - J. Prades - L. Giussani, *Generare tracce nella storia del mondo*, op. cit., p. 152.

[153] L. Giussani, *Una strana compagnia*, op. cit., pp. 88-89.

تكون انعكاسًا لنظرة الله، لهذا الحضور الذي يخلق روابط»[154].
هذا هو ما ينتظره العالم: «"الخليقة نفسها تنتظر بفارغ الصبر ظهور أبناء الله [...]". وإنسان كلّ الأزمنة ينتظر هذا الإنسان الجديد من دون القدرة على وعيه بالكامل، بسبب عدم قدرته على تخيّل مبادرة الله»[155]، كما تقول مدرسة الجماعة. وحده هذا الحضور المختلف والأصيل يمكنه أن يجيب على آمال إنسان اليوم، كما نرى في العديد من القصص التي تحدث وفي العديد من الأشخاص الذين نلتقي بهم، مدركين لحاجتهم.
في هذا الصدد، يكتب فون بلتازار: «طالما أنّ المقصود بالمسيحيّ هو أوّلًا التقاليد والمؤسّسات، فستخلو الساحة لحركات الحريّة في العصر الحديث». ثمّ يحدّد بدقّة لا مثيل لها كيف يمكن أن يصبح النقاش مثيرًا للاهتمام: «إنّ المواجهة الحقيقيّة تكون فقط عندما يسعى المسيحيّ جاهدًا [...] لتبيان أنّ انفتاح الله الذاتيّ في يسوع المسيح إنّما هو دعوة للدخول في فضاء الحرّيّة المطلقة، حيث لا تنتشر سوى حرّيّة الإنسان»[156].

---

[154] البابا فرنسيس، تحيّة إلى السكّان، بويرتو ملدونادو (البيرو) 19 كانون الأوّل / يناير 2018.

[155] L. Giussani, *Perché la Chiesa*, op. cit., p. 241.

[156] H.U. von Balthasar, «Premessa», in H.U. von Balthasar - L. Giussani, *L'impegno del cristiano nel mondo*, op. cit., 24.

الأحد 29 نيسان/أبريل صباحًا

عند الدخول والخروج:
لودفيغ فان بيتهوفن، السمفونيّة رقم 9 ري مينور، العمل 125 "كورال"
هربرت فون كارايان – أوركسترا برلين
"سبيرتو جنتيل" 27، دويتشي غراموفون

السلام الملائكيّ
صلاة الصبح

الجمعيّة العموميّة

دافيدي بروسبيري. لقد كان جمع الأسئلة غنيّا جدّا، فقد جاءنا أكثر من ألف ومائة سؤال. إنّها علامة على أن ما شهدناه في هذه الأيّام والأمور التي قيلت لنا قد أصابت في الصميم الأسئلة والاحتياجات التي تراودنا في حياتنا. لدرجة أنّ معظم الأسئلة، كما سنرى، مدعومة بتجارب شخصيّة تؤكّد أو تشعر بتحدّي ما سمعناه. وهذا جميل جدّا، وهو علامة فائدة بادرة من هذا القبيل، لأنّه بدون خبرة كلّ واحد منّا الموضوعة موضع نقاش لن تكون البادرة هي نفسها، ولن تأتي إلا بالقليل.
من بين المسائل العديدة التي طرحتموها، أثارتنا ثلاثة بشكل خاصّ. سأقوم بتلخيصها بإيجاز قبل البدء بطرح الأسئلة.
المسألة الأولى تتعلق بالمعرفة الجديدة، التي تزيد الألفة مع المسيح. لقد أثّرت كثيرًا، فهي تعود بطرق مختلفة: فسواء أن نكون أدركناها كشيء ينتمي إلى الخبرة التي نعيشها، وسواء كانت قد أذهلتنا كاقتراح غير متوقع، فإننا شعرنا جميعًا الرغبة في أن تستحوذ على حياتنا – التي تبدو ظاهريًّا في بعض الأحيان فارغة متكرّرة أو تعيسة – هذه الألفة مع الربّ التي تجعل كلّ شيء جميلا ورائعًا، كما كان الحال بالنسبة لأولئك الذين كانوا معه على طرقات الجليل. وبأنّ بإمكاننا أن نعيش خبرتهم نفسها.
أمّا المسألة الثانية فتشير إلى مركزيّة الذاكرة في حياة المسيحيّ. وهذه الكلمة تشكّل جزءًا من حمضنا النوويّ. لقد أعاد دون جوسّاني اختراع معناها، ففهم أنّ لها في العالم الذي نعيش فيه قوّة غير عاديّة. لا يتعلّق الأمر بمجرّد ذكرى جميلة من ذكريات الماضي، كما سمعنا في الأيّام الأخيرة، فهي الصخرة التي تستند عليها إمكانيّة عيش الحاضر من دون خوف ولا اختزالات.

وأخيرًا، تتعلق المسألة الثالثة بقيمة رفقتنا الكبرى. فحقيقة أنّنا لسنا وحيدين في هذه الرحلة ليست مجرد عزاء: إنّها الطريق.
كما سبق وقلت، لقد وصلنا الكثير من الأسئلة. وأنا أعلم أنّ الكثيرين، في بعض الأحيان، يشعرون بخيبة أمل لأنّهم يهتّمون بمسألة معيّنة، يولونها أهمّية قصوى، أو ربّما تبادرت مسألة إلى ذهنهم وهم يستمعون إلى ما قلته، ولا يجدون جوابًا عليها. من الجدير الإجابة على الجميع، ولكن من الواضح أنّ هذا غير ممكن؛ ولا أحد يريد ذلك، فكلّنا يريد أن يعود عاجلًا أم آجلًا إلى منزله! أودّ أن أسألك ما إذا كان لديك ما تقوله لنا بهذا الخصوص.

خوليان كارّون. شكرًا، نعم، أودّ أن أقول إنّه من الجميل أن يعود الكثيرون منكم إلى منازلكم حاملين معهم أسئلة. اتركوها مفتوحة! سنبدأ رحلة الرفقة، عاملين على كلّ ما قلناه، كما نفعل عادة. أن تكون قد تبادرت أسئلة لدى الكثيرين هي أوّل علامة على ما حدث هذه الأيّام، حول حقيقة أنّ شيئًا ما قد تحرّك فينا. ولذلك فهي أوّل عطيّة من عطايا هذه الرياضة وهي، قبل كلّ شيء، مصدر دهشة بالنسبة لي. إنّ وجود أسئلة، كما نعلم، لهو أمرٌ بالغ الأهمّيّة لالتقاط الإجابات، ولفهمها. وقد رأينا ذلك عندما ذهبنا إلى المدرسة، فمن لم يجهد بمحاولة الفهم، والقيام بواجبه، لم تكن لديه أيّة أسئلة. وحده من كان يجهد كانت لديه اسئلة. اكنزوا إذن الأسئلة التي لديكم وأولوا اهتمامًا بالعلامات، بدلائل الإجابة، التي سوف تجدونها في طريقكم. وهكذا تصبح الحياة مغامرة رائعة للمعرفة. بهذا الخصوص تأثّرت دائمًا بجملة لدون جوسّاني، في مطلع الفصل الرابع من الحسّ الدينيّ: «إنّنا وُجدنا من أجل الحقيقة، وأقصد بالحقيقة التوافق بين الوعي والواقع». وبالتالي « لن يكون من العبث أن نكرّر القول إنّ المشكلة الحقيقيّة في البحث عن الحقيقة [...] ليست مسألة ذكاء معيّن نحتاجه أو مجهود خاصّ، أو وسائل غير اعتياديّة نستخدمها للوصول إليها. إنّ ملء الحقيقة كمن يجد شيئًا جميلا في طريقه: نراه ونتعرّف عليه إذا كنّا منتبهين. المسألة إذًا هي الانتباه»[157]. أن تكون لدينا أسئلة يسهّل الانتباه.

بروسبيري. دعونا نبدأ بالأسئلة.
«صباح البارحة قلتَ إنّه يمكنني أن أعرف الله وأعرف نفسي انطلاقا فقط من اختيار الله وتفضيله لي، وأن ما يهمّ هو العلاقة التي يقيمها الله معي. أشعر بحدسي أنّها نظرة

[157] لويجي جوساني، الحسّ الدينيّ، ص. 45.

جديدة عليّ، تحرّرني من المقياس الذي أطبّقه على نفسي. هل يمكنك العودة إلى هذه النقطة؟

كارّون. أوّل شيء هو إدراك الأمر. لهذا السبب خصّصنا الدرس بكامله صباح أمس لكي نكون واعين لتفضيل الله ولمبادرته تجاهنا. كما ترون، إنّها تذهلنا دائما. ليست أمرًا مفروغًا منه. ويتصوّر المرء كلّ ما فيها من جديد، لأنّها تتحدّى عقليّتنا، التي تجعلنا نعتمد على ما نفكّر به وعلى جهودنا. الربّ هو الذي أخذ زمام المبادرة. ما العمل إذن كي يصبح الوعي خاصّتنا أكثر فأكثر؟ ما قلناه صباح أمس لم يكن تذكيرًا بتمهيدٍ، للانتقال بعده إلى تمهيد آخر في الخطاب. بل كان محاولة لإظهار كيف أن هذا التفضيل، الذي طبع بداية تاريخ إسرائيل، يمسّ حياتنا ويمكنه أن يدخل أحشاء أنانا. إنّ خبرة تفضيل الله تثبت أنّها مرغوب بها لدرجة أنّه لا يمكن ألا أشعر بضرورة أن تصبح ملكًا لي، أن تستحوذ عليّ، لدرجة عيش هذا الوعي. لكنّها عبارة عن مسيرة، أيّها الأصدقاء! وكلّ الطريق الذي أرساه الله هو لكي نستطيع أن نصل إلى يقين العلاقة به، إلى يقين حبّه لحياتنا. كلنا نرى مدى صعوبة اختراق هذا اليقين لعقليّتنا، فنحن نعتقد أنّ الأمر يتعلق بكفاءتنا ومحاولاتنا وتحليلاتنا وذكائنا. ويؤكّد دون جوسّاني أن أبعد ما يكون عن عقليّتنا هو أن يكون حدثًا – حدثًا يحدث باستمرار من جديد – ما يوقظنا على أنفسنا وعلى حقيقة حياتنا. لذا فإنّ المسألة، كما كان الحال بالنسبة لشعب إسرائيل، هي الالتفات إلى أيّة علامة على الحدث الذي يحدث من جديد، إلى أي بصيص لتلك المبادرة المتواصلة التي يأخذها الله من أجل أن تكون لنا خبرة عنه – "لأنّي أنا الربّ"– لكي نتمكّن من أن ننظر إلى أنفسنا بنفس الشكل الذي ينظر به السرّ نحونا: «فضّلتك، أنت عزيزٌ في عينيّ». كلّ بادرة من الله هي من أجل أن تخبرنا بذلك، من البداية وحتّى الآن. ليست هناك لفتة من الله، وطريقة تقرّبنا منه، إلا وتخبرنا بذلك. من هنا ينشأ ببطء الوعي بأنّنا، أنا وأنت، العلاقة التي يرسيها معي ومعك، ومع كلّ فرد منّا. تخيّلوا أنّنا نستيقظ في الصباح، كلّ يوم، مع وعي للربّ الذي يقول لنا: «أنت عزيزٌ في عينيّ». يا للجديد الذي سيأتي، مهما كان علينا أن نواجه! كما قلت بالأمس، نقلًا عن فون بلتازار،
«إنّ الحبّ الذي يعطيني الله إيّاه يجعلني ما أنا عليه في الواقع»[158]. إذا لم ننظر إلى بعضنا البعض على هذا النحو، فإنّنا لا ننظر إلى بعضنا البعض بشكل جيّد. لقد حدثت هذه النظرة ولم يعد أحد يستطيع أن ينزعه من التاريخ بعد الآن. إنّ الله فريد من نوعه

[158] راجع الصفحة 22.

على الإطلاق، وفي منحه حبّه لي، يجعلني فريدًا أنا أيضًا. أنت وأنا تحدّدنا هذه النظرة. وكلّ صورة مغايرة ليست إلا اختزالا لأنفسنا.

وعندها يبدأ طريق بمثابة صراع. فغالبًا ما نسقط في المقياس: إذا استطعت القيام بهذا أو ذاك، إذا كان بإمكاني أن أكون صادقًا مع نفسي، إذا كان أدائي كافيًا، كيف يحكم عليّ الآخرون ... طريقنا هو معركة بين مقياسي – أو مقياس الآخرين – والتفضيل الذي دخل حياتي. هناك إله يقول لي: «يمكنك قياس نفسك قدر ما تريد، يمكنك الوقوع في قياسك قدر ما تريد، لكنك عزيزٌ في عينيّ، ويمكنك دائمًا أن تسمح لتفضيلي بدخولك من جديد. مقياسك لا يحدّدك، فأنت هو التفضيل الذي أكنّه لك». من هنا، فقط من هنا يمكن أن تولد رقّة تجاهنا، نظرة تسمح لنا باحتضان أنفسنا من غير أن تكون محض عاطفيّة. بقدر ما ترحّب بها، يمكنك البدء في استعمال هذه النظرة في خبرتك، في كلّ شيء تلمسه. وعندما يبدأ هذا الحضور بالاستحواذ على جميع علاقات الحياة، كما قلنا في ختام درس بعد ظهر أمس، عندما تتوقّف عليه جميع العلاقات، عندما يتمّ حفظها والحكم عليها وتنسيقها وتقييمها واستخدامها في ضوء ذلك الحضور، عندها تكون لدينا ثقافة جديدة، أي نظرة جديدة على كلّ شيء. لأنّ الثقافة الجديدة تنشأ من الموقف الذي يتبنّاه المرء تجاه هذا الوجود غير العاديّ والحاسم بالنسبة للحياة. إنّها بداية عالم آخر، في هذا العالم. من الملائم ألا نفقد هذه البداية، من الملائم ألا يتمّ تقليصها إلى شيء من الماضي، بل أن تظلّ دائمًا من الحاضر. فكلّ جهد الله، والكمية الهائلة من المبادرات التي يتّخذها، هو من أجل إقناعنا: «أنت عزيزٌ في عينيّ ولا شيء من أخطائك، لا شيء من نسيانك، لا شيء من مزاجك السيّء يمكنه أن يمحيها عن وجه الأرض». لماذا إذن نصارع ضدّ هذا الدليل الواضح باسم أحد مقاييسنا، والذي لن يكون حقيقيًا أبدًا؟ ما الفائدة؟ الحقيقة الوحيدة هي: «أنت عزيزٌ في عينيّ». سوف يكون صراعنا دائمًا صراعًا غير متكافئ، لأنّ ما يحدّدنا في نهاية المطاف، ولو لم ندرك ذلك، هو النظرة الفريدة التي يملكها المسيح نحونا. وكلّ جهد العيش عبارة عن هذا الكفاح للسماح له بالدخول. كم من الوقت نحتاج لكي يخترق إدراك نظرته أحشاءنا؟

بروسبيري. هناك الآن سؤلان حول موضوع الذاكرة.
«ما هو الفرق بين "المعروف أصلا" و "الذاكرة"؟ هل هناك طريقة للانطلاق من الخبرة المكتسبة التي هي فرضيّة بدء في الحكم على كلّ شيء؟ أم إنّ هذا خطأ؟»
السؤال الثاني المماثل هو تفسير شخصيّ: «لقد قلت صباح أمس إنّ "النبع يتدفّق من

خلال شخصنا كلّه حتى عندما تشغلنا الالتزامات الأرضيّة». هل يمكنك شرح ذلك بشكل أفضل؟ أنا صاحب مهنة حرّة، ويومي مليء بطلبات ذات طبيعة "فنّيّة"، يجب أن ألبّيها بشكل عاجل وبدون توقّف. في كثير من الأحيان، ورغم رغبتي في ذلك، يبدو لي أنّني لا أزيد ألفتي مع يسوع، فكيف يمكننا دائمًا أن نحافظ على الحدث في أعيننا ونقوّي ذلك في أشغالنا المهنيّة التي تدور حول موضوع يبدو أن لا علاقة له بالمسيح؟ أهي مسألة تقوية الذاكرة؟».

كارّون. الفرق بين "المعروف أصلا" و "الذاكرة" – بالمعنى الذي يتحدّث عنه دون جوسّاني، أي بالمعنى المسيحيّ الأصيل لكلمة ذاكرة – هو سهل الفهم. هناك طريقتان متعارضتان نتعامل بهما مع ما حدث لنا. فلنفكّر كيف أنّ من القصّة نفسها التي تحدّثنا عنها صباح أمس نشأ موقفان متعارضان. من ناحية، موقف الفرّيسيّين. فهم كانوا يعرفون تاريخهم جيّدًا، وكانوا يأخذونه بجدّيّة أكبر، ظاهريّا، ولكنّ هذا قادهم في مرحلة ما إلى الاعتقاد بأنّهم يعرفون كيف تسير الأمور. وهذا "المعروف أصلا" أغلق قلوبهم بدلا من جعلهم منفتحين – كما كان سيحدث بفضل ما يعرفونه – على المبادرة الجديدة التي كان السرّ الإلهيّ يأخذها أمامهم. ومن ناحية أخرى، هناك موقف العذراء، وموقف يوحنا وأندراوس. أرجو الانتباه، فالفرّيسيّون، والعذراء، ويوحنا وأندراوس كانوا معاصرين، فقد عاشوا جميعهم في نفس الزمن وكان لجميعهم نفس التاريخ العظيم. لكنّ هذا التاريخ ولّد في نفوس العذراء ويوحنا وأندراوس، بفضل الطريقة التي عاشوه بها، انفتاحًا كلّيًا على الجديد الذي كان المسيح يمثّله، والذي كان قد استبقه كلّ ما أحدثته مبادرة الله حتى ذلك الحين. إنّ تأصّل هذا التاريخ الخاصّ، تلك الذاكرة، قد جعلهم ينفتحون أمام عمل الله غير المتوقّع. أمّا لدى الفريسيين فقد حدث العكس تمامًا. لذلك فإنّ الفحص والاختبار، حول ما إذا كنت في موقف "المعروف أصلا" أو "الذاكرة" هو عمّا إذا كنت متفتحًا أو منغلقًا على غير المتوقّع الذي يجعله الله يحدث أمام عينيّ اليوم. فهذا الانغلاق ليس محصورًا بالفرّيسيّين. لفقد اختبره بطرس أيضًا. فهو أجاب يسوع الذي كان يسأل التلاميذ: «وأنتم من تقولون إنّي هو؟» قائلا: «أنت المسيح ابن الله الحيّ». «طوبى لك يا بطرس فإنّه ليس لحمٌ ولا دمٌ كشف لك هذا، لكن أبي الذي في السماوات»[159]. لم يُشِد يسوع بأحد بهذه الطريقة. ولكن في وقت لاحق، اعتقد بطرس أنّه قد فهم وأنّه يعرف كيف تسير الأمور، وقام هو نفسه بالاختبار الذي تحدّثتُ عنه. فبعد أن قال له

[159] راجع متى 16، 15-17.

يسوع: «طوبى لك يا بطرس ...»، أضاف قائلا: «الآن دعونا نمضي إلى أورشليم، لأنّني يجب أن أقدّم حياتي من أجلكم» فقال له بطرس: «لا يكون لك هذا!». بعد كلّ ما رآه – فقد كانت حياته مع يسوع أمرًا جديدًا باستمرار، يتكوّن من أحداث ما كانت لتخطر على باله – وبعد أن أعطى جوابًا استحقّ الثناء عليه، وبدلا من تأييده غير المتوقّع، أي ما يقوله له يسوع، وضعه بطرس في قفص الاتهام: «مستحيل! هذا لن يكون أبدًا!»[160]. وهذا ينطبق علينا أيضًا: فبدلًا من أن يكون تاريخ حركتنا، بحكم طبيعته، شيئًا يولّد انفتاحًا لا ينضب أمام جديد مبادرة المسيح، يمكنه أن يصبح، من خلال الطريقة التي نعيشه بها، "معروفًا أصلا" يجعل الاتّباع "غير ضروريّ": نعتقد أنّنا لم نعد بحاجة إلى الاتّباع! يمكننا أن نرى ذلك من حقيقة أننا، على مثال بطرس، نقول ليسوع ما يجب عليه فعله. وفي وقت معيّن، مستعيدين مقارنة استخدمناها في أوقاتٍ أخرى، نتصرّف مثل كانط: «إذا كان لدينا الإنجيل، فلماذا علينا أن نتبع مرّة أخرى؟ يمكننا القيام بذلك لوحدنا». في هذا الموقف – منوقف الفرّيسيّين وبطرس وكانط وأحيانًا كثيرة موقفنا – تكون الغلبة لـ "المعروف أصلا" على "الذاكرة". لذا لم يكن بودّي أن يصبح درسُ صباح أمس درسًا في "التاريخ المقدس"، الذي تعرفونه أصلا، بل محاولة جعلنا نعي طريقة الله، وهي طريقة لم نصل إليها بعد، لم نتعلّمها بعد أو نقبلها، ونميل دائما إلى الهروب منها، بحيث غالبا ما نجد أنفسنا نقول، مثل بطرس: «لا، لا، لا يكون لك ذلك». فلنغيّر الطريقة، وننفصل عن الأصل. لكنّ الطريقة ستكون دائمًا هي نفسها: مبادرة ثابتة من المسيح، علينا تأييدها. لا يتعلق الأمر بالماضي فحسب، بل بالحاضر أيضًا. لهذا السبب يحذّرنا يسوع قائلا: «إنّ الذي يقبل من أرسلُه يقبلني»[161]، لأنّه يستمرّ في إرسال آخرين يجعل نفسه حاضرًا من خلالهم. بدون تكرار هذه المبادرة، بدون حدوث حضوره من جديد أمام أعيننا، لا توجد خبرة مسيحيّة، ومع ما "نعرفه أصلا" لا ندوم حتى ليوم واحد. طريقة الله تتوافق مع حاجتنا. يجب أن نعي هذا الأمر.

ونأتي إلى الجزء الثاني من السؤال: كيف يمكننا دائمًا أن نحافظ على حدث المسيح في أعيننا ونقوّي وعي حضوره في أشغالنا وأعمالنا؟ أذكر أنّهم سألوني مرّة كيف يمكن للمرء أن يذكر المسيح أثناء عمله. أجبت عاكسًا المسألة: «وكيف يمكنك أن تعمل من دون أن تذكر المسيح؟». كيف تطيقون ساعات العمل العديدة، أحيانًا في خضمّ تعقيدات وصعوبات، بدون تذكّر؟ كيف يمكنك الاستيقاظ في الصباح والنهوض

---

[160] راجع متى، 16، 22.

[161] يوحنا 13، 20.

من السريروالنظر إلى زوجتك أو زوجك وأطفالك من دون تذكّر؟ إنه العكس تمامًا، كما تقول صديقتنا الهنديّة: حتى عندما حاولت الهرب ممّا حدث لها، لم تستطع منع أن يكون أوّل ما يتبادر إلى ذهنها ما إن تفتح عينيها هي وجوه الأشخاص الذين التقتهم والذين كانت سمتهم الوحيدة أنّ المسيح مسّهم. لقد حدّدت ذكرى ما استحوذ عليها انتظارها لكلّ شيء. الذاكرة هي ثمرة ألفة تجعل كلّ شيء خفيفًا. توضح لنا هذه الرياضة الطريقة التي يجب أن نسير عليها: ليس لأنّنا قرّرناها نحن، بل لأنّ الربّ خطّها، وإذا عدنا إلى الأصل، فلكي نضع أمام أعيننا الأسلوب الذي استخدمه الله منذ البداية، ولا يزال يستخدمه في الحاضر. الكتاب المقدّس هو قانون طريقة الله: تاريخ، بدأ في الماضي، يستمرّ في الوقت الحاضر. لهذا السبب كلّ شيء، كلّ تحدّ، وكلّ معاناة هي دعوة للذاكرة. حتى كلّ عدم الرضا هو مناسبة للذاكرة: «ألا تشتاق إليّ؟».

بروسبيري. «هل يمكنك توضيح معنى أنّنا لا نفهم إلا بعقل ملتزم عاطفيّا؟»

كارّون. عند إعدادنا الرياضة – أوّل نعمة بالنسبة لي هي إعداد هذه اللحظة، على أمل أن تكون مفيدة لكم أيضًا – أثارني نصّ قرأته مرّات عديدة. ويرد في الفصل الثالث من "الحسّ الدينيّ". فبعد الحديث عن اكتشاف باستور – تذكرون كلّكم هذا المقطع – يطرح دون جوسّاني مثلًا: «فلنفترض أنّني أسير مع ماركو في شوارع المدينة لأنّه أثار مسألة جدّيّة، وأنا أجهد نفسي بتفسيرها له. هو يتبعني وأنا أشرح له أفكاري وأزداد حماسة ويقظة، أو هكذا يبدو لي. "هل تفهمني؟" "نعم، نعم إنّي أتابعك". كنّا نتناقش سائرين وعيوننا تحدّق في الرصيف، ولكنّه رفع عينيه لينظر إلى فتاة جميلة تسير نحونا فتابع قوله "نعم، نعم" بطريقة آلية مركّزًا عينيه عليها وأدار رأسه كي يراقبها وهي تبتعد ولم يحوّل نظره عنها إلا بعدما اختفت. فالتفت اليّ في الوقت الذي كنت أسأله فيه: "هل توافقني يا ماركو؟" فأجابني: "لا، لا! إنّي لست مقتنعا». ويعلّق دون جوسّاني قائلا: «هذا ليس بصحيح». لماذا؟ «لأنّه لم يكن منتبهًا. إنها الإساءة التي يرتكبها معظم الناس أمام مسألة المصير والإيمان والدين والكنيسة والمسيحيّة» وأمام كلّ ما يحدث. لماذا أثارتني هذه الصفحة كثيرًا؟ بسبب ما يقوله جوسّاني بعد ذلك مباشرة: «إنّ أغلب الناس يرتكبون هذا النوع من الخطأ لأنّ عقولهم مشغولة بأمور أخرى فعقلهم "مات ودُفن"»[162]، أي إنّه أيّ شيء ما عدا الالتزام. "مات ودُفن"، يقول بالتحديد! كانت هناك بالطبع أحداث خارقة – ولهذا

[162] لويجي جوساني، الحسّ الدينيّ، ص. 39-40.

تحدّثت أمس عن معجزة تكثير الأرغفة – ولكن إذا كان دماغنا، إزاء هذه الاحداث، "مات ودُفن"، فإنّنا لا نراها. يصبح الأنا كالحجر: يمكن أن تحدث الأشياء الأكثر إثارة للدهشة، لكنّ أنانا ليس هناك. لهذا السبب يؤكّد دون جوسّاني أنّه لا يستطيع أن يفهم إلا من يلتزم، والذي «يلتزم بما يختبره»[163]. وهذا يعني أنّ هناك الواقع وهناك أيضًا الأنا، الذي يملك معيارًا للتعرّف إلى الحقيقة، لكنّ حقيقة الواقع وطبيعة الأنا تتجليان فقط من خلال الخبرة، عندما يكون الأنا ملتزمًا بما هو موجود وملتزمًا – في نفس الوقت – بما يختبره، في ما يختبره، عندما يصادف ما هو موجود. هذا يشبه عندما تذهبون لشراء أحذية، فأنتم ترونها في الواجهة وتفكّرون قائلين: «هذا هو الحذاء الذي يناسبني. إنّه يتطابق تمامًا مع ثيابي. لا بل يبدو لي أنّه على قياسي». ولكن فقط عندما يدخل الشخص إلى المحلّ ويلبس الحذاء فعلا، مجتهدًا في ما يجرّبه، عندئذ فقط يمكنه معرفة ما إذا كان هو الحذاء الصحيح. كلّ شيء يمكنه أن يسير بشكل جيّد في أذهاننا، كما سمعنا بالأمس. فقد يقول أحدكم: «أستطيع أن أترك من الحركة، فأنا لا أحتاجها في الواقع»، لأنّه مقتنع بأنّه قد فهم؛ ولكن عندما ينخرط في ما يقوم به، وبما أنّه تركها، فإنّ خيبة الأمل تنتابه ويبدأ الحكم في الظهور. وفقط عندما يعود يبدأ في إدراك الأشياء. إنّها نفس القصّة دائمًا. نحن نفهم فقط إذا اجتهدنا في ما نقوم به وما نجرّبه، وإلا فإنّ كلّ ما يحدث سيكون عديم الفائدة بالنسبة للطريق الذي يتعيّن علينا السير عليه. لذلك مطلوبٌ منّا عمل. لا توجد طريقة أخرى للفهم. مرّات عديدة نتوقع معجزة تجنّبنا الحرّيّة، لكنّ دون جوسّاني يقول: «توقّعوا مسيرة، لا معجزة تعفيكم من مسؤوليّاتكم، وتعفيكم من جهدكم، وتجعل حرّيّتكم آليّة»[164]. وحده من يقوم بالمسيرة، انطلاقًا من لقاء أو من معجزة، يمكنه أن يفهم حقًا، وإلا فسوف يجد نفسه في نفس حالة التلاميذ وهم يتناقشون حول الخبز على السفينة، الذي قال لهم يسوع: «ألا تفهمون؟»[165]. وإذا كنّا لا نلتزم مع ما نلتقي به وما نختبره، فإنّنا نعود دائمًا إلى نقطة البداية، ونعتمد دائمًا على حالتنا المزاجيّة، ولا نعرف حقّ المعرفة ما هو ماثل أمامنا، وبالتالي فإن كلّ ما يحدث لن يزيد من الألفة مع المسيح. المشكلة ليست أنّنا لا نقوم بأشياء، ولكن في كوننا لا ننخرط، في الأشياء التي نقوم بها، في مقارنة مستمرّة مع أنفسنا، وبالتالي لا نعرف المسيح. قد يخطئ المرء أيضًا، ويدرك من خلال خطأه أنّ ما يفعله لا يحقّقه، فيدرك الفرق بين المسيح وما كان

---

[163] L. Giussani, *Si può (veramente?!) vivere così*?, Bur, Milano 1996, p. 82.

[164] L. Giussani in A. Savorana, *Vita di don Giussani*, op. cit., p. 636.

[165] مرقس 8، 21.

يتوقّع منه التحقيق؛ يدرك أنّ عمله لا يرضيه لأنّ المسيح غير موجود فيه. عندما أدركُ بعد خطئي أنّ المسيح كان غائبًا عن حياتي، أكون ممتنّا لذلك: إنّ وعيي بخطئي يجعلني أعود إليه، كما حدث للابن الضالّ. ليست المسألة عدم الوقوع في الخطأ أبدًا. فالإيمان ليس للملائكة فقط. إنّه للمساكين، للضعفاء مثلنا، الذين يتعلّمون دومًا ممّا يحدث؛ أي لأناس من لحم ودم.

بروسبيري. «لقد تأثّرتُ بحديثك حول الله الذي رفع الألفة معه عبر تمرّدات وخيبات شعب إسرائيل، تمامًا كما ردّ يسوع على عدم تصديق الرسل ليس بمعجزات جديدة، بل بتحدّيهم حول الأصل. كيف يمكننا ان نتأكّد من أنّ الألفة مع يسوع تنمو من خلال الخيبات والتمرّد وعدم التصديق؟»

كارّون. هذا ما يجب عليكم التحقّق منه بأنفسكم، إذ لا يكفي أن أشرحه لكم. من الضروريّ أن نتحقق ممّا إذا كان الله، عندما نعيش تمرّداتنا وخيبات أملنا وأخطائنا، يستمرّ في أخذ المبادرة تجاهنا، وإذا كانت ألفتنا معه تنمو من خلالها ببطء. فالله لا يجعل نفسه حاضرًا في حياتنا فقط عندما نكون صالحين. حتّى عندما يتذمّر شعب إسرائيل لأنه لم يأكل شيئًا، يتدخّل الله لإنقاذه، ولا ينتظر أن يتصرّف الإسرائيليّون بشكل جيّد لكي يتدخّل. الله يتدخّل ويجعلنا نشعر بوجوده مستخدمًا كلّ شيء، حتى تمرّدنا، وذلك فقط ليُظهر لنا أنّه مختلف. إنّ قراءة كلمات القدّيس بولس مواسية جدًا في هذا الصدد: «إنّ الذين يحبّون الله كلّ شيء يعاونهم للخير»[166]، مع تعليق للقديس أغسطينوس يقول فيه: *Etiam peccata* ، حتّى الخطايا. يستخدم الله كلّ شيء ليُظهر لنا وجهه. كما تفعلون أنتم مع أطفالكم، فعندما يثورون، وعندما يغضبون منكم، وعندما ينغلقون على أنفسهم، تستمرّون في أخذ المبادرة معهم، ومن هذا بالتحديد يمكنهم التعرّف على اختلافكم فيفكّرون قائلين: «الحمد لله على وجود أمّي!» وهذا ينطبق علينا أيضًا: أحمدك على وجودك، إيّها المسيح! فأنت لا تتخلّى عنّي في الخيبات، ولا في الهفوات، ومن خلال كلّ حالة أستطيع العودة إليك. عندها يكون المرء سعيدًا لوجود المسيح أكثر منه مكتئبا لكونه أخطأ، فيطغى الامتنان لوجود المسيح على ألم الخطيئة. مثل الطفل الذي يبكي، فهو يرى أمّه، وفيما لا يزال يبكي يبدأ بالابتسام لها. لذلك، كلما رأى المرء المسيح وهو يعمل في حياته – ولهذا السبب يجب أن نكون منتبّهين إلى ما يحدث، إلى المبادرات الجديدة التي يأخذها الله معنا –

[166] روم 8، 28.

ازدادت الرغبة في الثقة به. كما لو كان يقول لنا: «لماذا تنفعل وأنا ههنا؟ ألا تفهم حتّى الآن؟ لماذا تشعر بالتوتّر لأنّك نسيت بعض الخبز؟ ألم تفهم من أكون؟». في كلّ مرّة، ومن خلال كلّ ما يحدث، يسعيدنا المسيح برقّته، لندخل أكثر وأكثر في أعماق كياننا.

بروسبيري. قد تكون أجبت بعض الشيء، ولكنّي سأقرأ السؤال التالي: «لقد تأثرت لسماعك تقول إنّني مجبول بالحرّيّة وإنّني مدعوّ للمشاركة في نفس الحرّيّة التي يحبّ الله بها كلّ شيء. وقلت إنّ أصل اختيار الله يتزامن مع الغرض من هذا الاختيار. كان الأمر أشبه بالتطلّع إلى احتماليّة لم أفكّر بها أبدًا، إلى مشهد لم أره من قبل، فأنا لم أفكّر أبدًا في ذلك عن نفسي. بمعنى ما، تتطابق الألفة التي أرغب بها مع المسيح مع هذه الحرّيّة، التي يبدو لي أنّها الخير الأغلى: حرّيّة مليئة بالذكاء. ما الذي يحفظها وما صلتها بالمعرفة؟»

كارّون. قد تظهر لنا هذه الحرّيّة على أنّها «احتماليّة لم يفكّر بها أحد». ومع ذلك، فإنّها ما نحن عليه، ما هو اسمنا بالضبط: شراكة وتحرّر. نحن ننتمي إلى هذا الموقع على وجه التحديد بسبب خبرة الحرّيّة هذه. من الواضح أنّه لا يكفي تكرار الاسم لتدخل في أنفسنا خبرة التحرّر. إذ من الضروريّ أن تنمو الألفة مع المسيح. لهذا السبب أصرّ على أن المسألة الأولة، المسألة الحاسمة، هي هذه الألفة. وإذا كنا لا نصبح أكثر وأكثر على يقين من الربّ، ومن حضوره وحبّه لنا، متأكّدين من أنّ المسار الذي يجعلنا نقوم به إنّما هو من أجلنا، فسوف يكون من المستحيل اختبار الحرّيّة. فالحرّيّة مفاجأة تتبع من هذه الألفة، وليست نهاية جهدنا أو تحليلنا. علينا أن نهتمّ بأمر واحد فقط: دعم المسيح عندما يتدخّل، كما حدث لشعب إسرائيل. عندئذ سنفهم أنّ الحرّيّة هي دائمًا ثمرة تحرّرنا، أي السماح لحضوره بأن يدخل حياتنا. يجب علينا أن نولي اهتمامًا دائمًا بهذا: بكيفيّة دخول هذه «الاحتماليّة التي لم يفكّر بها أحد» من الحرّيّة فينا. لذلك فإنّه من المفيد العودة إلى شعب إسرائيل، لنرى كيف أنّ بمبادرة من الله يتبع التحرّر، من خلال كلّ الانعطافات، وكلّ الأخطاء، وكلّ التحدّيات، وكلّ الصعوبات، وكلّ العوامل التي شكّلت تاريخه. ففي تاريخ الخلاص، الذي ما زال ساريًا اليوم والذي يشملنا، كلّ شيء غال من أجل أن تدخل الألفة مع الربّ أكثر فأكثر فينا. يكفي أن ندرك أنّه يجب أن نبقى مرتبطين بالأصل، "بالنبع"، وهو الربّ، إذا أردنا أن نكون أحرارًا حقًّا. هناك خطر الوقوع بإغراء الاعتقاد بأنّ كلّ شيء يتوقّف على جهدنا وليس على اليقين من حضوره. لكنّ ما يحافظ على خبرة

الحرّيّة هو البقاء في علاقة مع من يولّدها. عندما اعتقد شعب إسرائيل أنّه يمتلك الحقيقة وابتعد عن الربّ الذي حرّره، كانت له وسيلة التحقق: لقد انتهى به الأمر إلى العبوديّة. الحرّيّة لن تكون ملكا لنا أبدًا، فهي عطيّة نتلقاها باستمرار. هذا ما نستصعب فهمه. فنحن نتعامل مع الحرّيّة كما لو كانت بمثابة قلم يمنحنا إيّاه أحدهم: «إنّه ملكي الآن، ولا أحد ينزعه مني». هذا زيف. الحرّيّة كالنار: إذا لم يتم تزويدها بالحطب، فسوف تخمد. إذا ابتعدنا عن المصدر، وهذا عن حضور المسيح الذي يعود ويحدث، فإنّنا نقع من جديد في شكل من أشكال العبوديّة، كما قلنا بالأمس. من هنا نفهم لماذا كلّ محاولة الله تتمثل في قودنا إلى نظرة الطفل التي شهد لنا بها يسوع، الذي يقبل كلّ شيء كعطيّة من الآب. وهذا يعني أنّه لا يمكنني أن أظلّ حرًّا إلا بقبول الحرّيّة التي يمنحني إياها "آخر". هذا هو أصعب شيء نستوعبه في رؤوسنا، أصعب تغيير في طريقتنا في الإدراك. فالتحوّل، كما قلنا مرّات عديدة، هو على مستوى الوعي الذاتيّ وعمّا يعنيه حدث المسيح بالنسبة لنا. فنحن غالبًا ما نستخدم كلمة "حدث" للإشارة إلى نقطة انطلاق حدثت في لحظة معيّنة، وبعدها سارت الأمور لوحدها. أمّا الحدث الذي نشير إليه فيحدث باستمرار، وهو دائمًا في الحاضر، وإلا لفقدنا الحرّيّة، وأصبحت من المستحيل.
لذا سيكون من الضروريّ استئناف "الدرس الأوّل"، والعمل عليه في الأشهر القادمة، لأنّه أكبر شيء نشعر ببُعده عنّا، كعقليّة، حيث نميل إلى الاعتقاد بأن العطيّة التي تلقيناها – تحرّرنا – قد أصبحت الآن أو يمكن أن تصبح ملكًا لنا.

بروسبيري. «بالأمس قلتَ إنّ المسيح هنا من أجلنا، للتغلب على كلّ مخاوفنا. أنا أخشى على أطفالي، أخشى من جعلهم ينمون في هذه الثقافة التي تقول لك بأنّ كونك ذكرًا أو أنثى ليس حقيقة، وحيث الدولة هي التي تقرّر ما إذا كان طفلك يجب أن يعيش أو يموت. كيف يمكنني محاربة هذا الخوف، وكيف يمكنني مواجهة الزملاء والأصدقاء الذين يؤمنون بذلك، دون الاستمرار في التشكّي والشعور بالضغط المستمرّ؟»

كارّون. إنّه تحدٍ كبير لها ولكلّ واحد منّا. يجب على كلّ واحد منّا التحقّق من كيفيّة الإجابة على هذه الأسئلة. إنّه أمرٌ حاسم. فصديقتنا لا يمكنها تجنّب تحديدها من قبل الخوف إلا إذا كان المسيح قادرًا على جعلها مخلوقًا جديدًا. هذه هي قفزة الوعي المذكورة في "الصفحة الأولى"، والتي طالما ذكّرنا بها جوسّاني: كلّما زادت الأوقات صعوبة، حان وقت الشخص. يكمن التحدّي في توليد شخص، وإلا وجب علينا أن

نعلن أنّ المسيحيّة قد ماتت ودُفنت، كشيء مفيد في حقبة أخرى، لكنّها لا تصلح اليوم! لقد ولدت المسيحيّة في عصور أسوأ من عصرنا، في الإمبراطورية الرومانيّة، ومرّت بأوقات عصيبة للغاية، ولكن لم تقدر أيّ قوّة في هذا العالم على منع توليد أنا، مخلوقٍ جديد، كما يشهد القدّيس بولس. إن لم تختبروا المخلوق الجديد الذي أتى به المسيح إلى العالم، فإنّكم ستنقلون لأطفالكم عدم أمانكم الوجوديّ، وسوف تضخّون الخوف في دمائهم. ولان يمكنكم أن الخروج من المأزق من خلال إعطائهم نصائح جيّدة، فهي أضعف من أن تواجه موقفًا كالذي طرحه السؤال. سوف تكونون قادرين على مرافقتك أطفالكم فقط إذا رأوا فيكم يقينًا، وإلا فسوف تنقلون إليهم ثقافتكم، الناشئة من عدم أمان وجوديّ. لكنّ هذا لا يعني أن نعيش في العالم بهذه الطريقة. يمكننا العيش في هذا العالم بشكل مختلف! إنّه التحدّي الكبير الذي تواجهه الكنيسة اليوم: توليد أشخاص قادرين على أن يعيشوا بطريقة مختلفة في هذا المجتمع بالذات، وليس في الحظيرة أو في الثكنات أو داخل محميّة؛ أي توليد أشخاص قادرين على أن يكونوا في هذا العالم، فيعيشون بشكلٍ لا لبس فيه، ويجلبون كلّ ما هو جديد في الحضور الأصليّ، النابع من الإيمان المُعاش، لأنّ هذا هو ما يهمّ الآخرين ويتحدّاهم. إنّه التحدّي الأقوى الذي قد يشعرون باستحواذه عليهم والذي ينتظرونه عن وعي أو بغير وعي.

هذه الرياضة هي محاولة لمواصلة سيرنا نحو ألفة أكبر فأكبر مع المسيح، يقيننا، حتى لا يطغى علينا عدم الأمان الوجوديّ وبالتالي الخوف، الذي يجعل مساهمتنا تساوي صفرًا. فقط عندما لا ننقل عدم الأمان، لا اليقين الذي يأتي من الإيمان، من الألفة مع المسيح؛ فقط عندما لا ننقل «المعروف أصلا» – الذي ليس كافيًا حتى لنا للعيش، فنحن نعرف بفضل خبرتنا أنّ معرفة كلّ مدرسة الجماعة كخطاب ليس كافيًا للتغلّب على الخوف – بل نضارة حياةٍ جديدة، عندها فقط نحقق وجودًا مناسبًا للتحدّي الذي نعيشه. لقد صار السرّ جسدًا لكي يتمكّن من مرافقة حياتنا، كي يدخل حياتنا حضورٌ مختلفٌ، يصيب الآخرين، وفق تدبير ليس من عندنا، كما نرى في مناسبات عديدة.

بروسبيري. «أنا وزوجي عاجزان عن الإنجاب. هذه المبادرة الغريبة التي أخذها الله معنا لا تجعلني أشعر بأنني مفضَّلة. فقلبي يصرخ هذه الرغبة في الأمومة، لكنّني أرى أنّ قلبي قد تصلّب في الآونة الأخيرة، واقتصر على شكل من أشكال السعادة خاصّ بي، إذ يسود نواح التلاميذ في حياتي أنا أيضًا (لماذا لا نستطيع أن ننجب؟ لماذا نحن بالذات؟). كيف يمكنني ألا أحدّ من هذه الرغبة وأمتلك قلبًا جديدًا عندما

يقول لك الواقع "لا"؟ لماذا يضع الله في قلبي أمنية ينكرها عليّ الواقع؟ كيف يمكن للقلب المتصلّب أن يولد من الجرح؟»

كارّون. إنّ ما يضعه الله في قلبكِ هو الرغبة في السعادة وليس الشكل المحدّد لتحقيقها، الذي تحدّدينه أنتِ، ولو على نحو مفهوم. لقد أجاب الله على رغبتك في السعادة بتقديمه حياته من أجلك. إذا كان المرء مندهشًا وممتنًا لهذا الأمر، إذا استند إلى ملء حضور المسيح الذي مات وقام، فسيكون قادرًا على مواجهة أيّ وضع. وإلا فسوف يسود الخوف. ففي تجسّده، وموته على الصليب من أجلنا، وقيامته، وبالتالي بقائه في التاريخ، أعطانا الله جوابًا وافيًا، أبعد من أيّ قدر. كيف تكون مواجهة الوضع الغامض الذي وصفته؟ لماذا تعيّن أن يحدث هذا لكما أنتما بالتحديد؟ لا أعرف لماذا، أو بالأحرى: المسيح لا يعطينا إجابة فكريّة، على شكل تفسير، لكنّه يقول لنا: «إنّ الإجابة على رغبتكِ هي أنا». فقط إذا قبلتِه، أي إذا قمتِ بخبرة التطابق الفريد لحضوره مع قلبكِ، يمكنك النظر إلى الجرح المتمثل بعدم إنجابك للأطفال، وسوف تكونين ممتنّة لأنّ المسيح موجود. هذا هو أمل العيش. امّا الطريقة التي سيجعلكِ بها السرّ تفيضين بالملء والفرح، فسوف يشير بها إليكِ عبر ما سيحدث. المهمّ ألا يطغى النواح على الدهشة من فرط ما يمنحك إيّاه. نحن أحرار وسعداء لأنّ لدينا كلّ شيء. أعود وأشدّد، إذا لم يقم المرء بخبرة الاتكاء على ملء حضوره، إذا لم يكن ممتنّا للقائه بالمسيح، ولم يختبر أنّ المسيح يحتضن كلّ شيء، فستكون الغلبة للنواح.

بروسبيري. «في انغماسه بثقافة اليوم، يميل الإنسان إلى تشريح المشاكل وتحليلها للوصول إلى عمق كلّ القضايا. كيف يمكننا أن نصل إلى نظرة قريبة من نظرة الأطفال إلى الواقع، من دون أن نقمع منهجنا العقلانيّ؟ كيف نتعامل مع أسئلة اليوم بقلب الطفل؟»

كارّون. إنّها مسألة يعود إليها دون جوسّاني دائمًا: أن نكون في الموقف الذي نولد به، أي ببساطة وصدق أمام الواقع، في ذلك الانفتاح الإيجابيّ الذي يعبّر عن نفسه كفضول، هو سهلٌ بالنسبة للطفل. ولكن إذا لم يلتزم الشخص البالغ بالتربية المستمرّة عليه، إذا اعتبره بمثابة عفويّة صرف، فلن يكون قادرًا على تبنّيه فعلًا، بل إنّه سيخسره ببطء، مستسلمًا إلى التفكير بأنّ هذا الانفتاح ساذج، وصالح للأطفال، لكنّه لدى البالغين يجب أن يفسح المجال للموقف "الذكيّ" الوحيد حقا، أي للشكوكيّة.

«لست ساذجًا!»: كم مرّة نسمع هذه العبارة من البالغين. المشكلة، أرجو الانتباه، ليست أن نكون "ساذجين"، بل البقاء في الموقف الأصليّ الذي نُخلق فيه، بعيون مفتوحة بالكامل أمام الواقع. ألا تحبّ أن تنظر إلى زوجتك كما في المرّة الأولى؟ أو إلى أطفالكِ كما عندما رأيتِهم يخرجون من رحمكِ؟ ما الذي يسمح بامتلاك هذه النظرة عندما نكون بالغين؟ بالنسبة لنا، كما قال نيقوديموس، هذا مستحيل. يمكن أن يكون عطيّة فقط، يجب دعمها باستمرار في التربية. لهذا السبب، إذا لم نولد في كلّ مرة من جديد، فإنّ هذه النظرو تختفي، ومعها العقل أيضًا، الذي يتم اختزاله إلى مقياس. من أجل معرفة الواقع بشكل أصيل، نحتاج قبل كلّ شيء إلى «عقل ينفتح»، يشرّع نفسه، قبل الحاجة إلى «عقل يفسّر»[167]. لذلك فإنّ مسألة الذكاء، بالنسبة لجوسّاني، متضمّنة كلها في رواية يوحنا وأندراوس. ففي لقائهما بيسوع الناصريّ، يبدو يوحنا وأندراوس منجذبين، مفتونين، مأخوذين: وفي هذه اللحظة بالذات ينفتح عقلهما، المدعوم بحالة مودّة، ويعمل وفق طبيعته كلّها. العقل الحقيقيّ الوحيد هو الذي يبقى مشرّعًا بالكامل على الواقع، كما يحدث عند الطفل. لهذا إذا لم نشارك بمكان نشرّع فيه أنفسنا باستمرار فسينتهي بنا الأمر في مياه تحليلاتنا الضحلة، متبنّين من دون إدراك «طرق تفكير العالم، التي ستكون مختلفة غدًا عنها اليوم»[168]. على العكس من ذلك، يقول جوسّاني، «تنطلق الثقافة الجديدة [...] من لقاء حصل، من حدث نشارك به، من الاصطدام بحضور، وليس من كتب نقرؤها أو أفكار نسمعها. لهذا اللقاء قيمة جينيّة، إذ إنّه يمثل ولادة شخص جديد، يتجلى في مكان معيّن وفي وقت من أوقات التاريخ، وهناك يتغذّى وينمو كشخصيّة جديدة، بتصوّر فريد من نوعه وغير قابل للاختزال إلى أيّ تصوّر آخر، [...] بمعرفة مختلفة»[169]. هل نحن على استعداد لعدم الابتعاد عن هذا اللقاء ذي القيمة الجينيّة من أجل الحفاظ على نظرة حقيقيّة إلى الواقع؟ وحده المسيح ينقذ العقل! نحن لا نذهب بعيدًا مع تحليلاتنا.

بروسبيري. «عندما تحدّثتَ عن اختزال الحدث إلى أيديولوجيا، أثرت فيّ تساؤلا غالبًا ما يتبادر إلى ذهني: ما الفرق بين الأشخاص الطيّبين (المعمّدين أم لا) والذين قابلوا المسيح؟»

---

[167] S. Alberto - J. Prades - L. Giussani, *Generare tracce nella storia del mondo*, op. cit., p. 22.

[168] *Ibidem*, 75.

[169] *Ibidem*, 152.

كارّون. هناك فرق واضح، لا ينشأ من عندنا. إذا كنّا هنا، فذلك بالضبط لأنّنا اصطدمنا بهذا الفرق. مثل صديقتنا الهنديّة، فقد وجدت نفسها أمام أقوال وأفعال، أمام حضور إنسانيّ لا تتصوّره، أي أمام أشخاص منفتحي القلب والعقل، لديهم نظرة إلى ذاتهم وإلى الآخرين، ومجّانيّة، وفرح، وخصوبة وقدرة بنّاءة، كما قلنا بعد ظهر أمس، لا مثيل لها، وطريقة لمواجهة الحياة والألم والموت لا يمكن أن تنبع من المهارة. يجب علينا ان نعيد قراءة "الرسالة إلى ديوجنيتوس"، ولكن يجب علينا أن ننظر أولا حولنا، فبيننا العديد من الأمثلة على طريقة حضور في أكثر الظروف صعوبة مع امتلاء وأمل لا يستطيع الإنسان أن يعطيه لنفسه. لذلك يصف دون جوسّاني هذه الإنسانيّة بـ«المعجزة». إذا كنا هنا وليس في مكان آخر، فهذا لأنّ هذه البشريّة غير موجودة في كلّ مكان وليست ثمرة جهد تماسك بشريّ. ولكن يجب على كلّ فرد أن يقول ذلك انطلاقًا من خبرته الخاصّة، للإجابة بنفسه على السؤال. على هذا يتوقّف قوام انتمائنا.

بروسبيري. تتعلّق المجموعة الأخيرة من الأسئلة بالرفقة.
«في مقدّمة الجمعة قلت لنا "يجب أن تذهب رفقتنا إلى ما هو أعمق وأعمق، و [...] يجب أن تهمّ قلبنا"، وأن تدفعنا إلى "علاقة عميقة وشخصيّة معه". ما هي التعليمات التي يمكنك أن تقدّمها لنا لهذه المهمّة، خاصة فيما يتعلق بمجموعات الأخويّة؟»
«أنا وحيد، وأعيش بعيدًا عن جماعات الحركة. كيف يمكنني أن أعيش الألفة مع المسيح؟ وما علاقة ذلك بالمسائل اليوميّة الملموسة؟»
«لم تعد صديقتنا الهنديّة موجودة في مكان الرفقة، ومع ذلك تبدو عاجزة عن طرحه عنها، وإن قالت "لا" مرّات عديدة. ما هو الطريق الذي يشير إليه هذا الأمر بالنسبة لحياتنا؟»

كارّون. الاقتراح الأبسط الذي أقدّمه هو البقاء على ارتباط بالخبرة، لأنّ عندها يمكن أن يحدث ما توثّقه هذه الرسالة (والتي تساعدنا في الإجابة على السؤال السابق أيضًا): « سطران فقط لأنقل لك الفرح والدهشة للقاء الذي قمنا به البارحة مع المسؤول الزائر. لقاء استند كليّا على الخبرة، وأيّ خبرة! لقد كان تفجُّرًا لشهادة التحقق من الإيمان في حياة كلّ فرد. اختبار مرض خطير، وفاة زوجة، فقدان الوظيفة، وحبّ اختبار "الأنا" والانخراط في حياة البلد الذي نعيش فيه أو في

المدرسة، واختبار صعوبات اقتصاديّة لدى وصول الطفل السادس، والتعب في الأسرة بسبب وجود أطفال بالتبنّي، والدهشة لمعجزة استعداد صديقين لاستضافة نيجيريّ فقد ملجأه. لقد كان حقا إظهارًا لكيفيّة تأثير الإيمان على الحياة وربح المئة ضعف في هذا العالم. وداخل كلّ مأساة حياة كلّ فرد، كان من الواضح أنّ الجميع سعيد ومسرور، وهذا كان مذهلا ويقطع الأنفاس: نسمة من الهواء الجديد والسحر. إذا كان يسوع يريد أن يقنعنا بأنّ من المناسب لنا أن نتبعه، من أجل صالحنا ولصالح جميع إخواننا البشر، فقد نجح يوم أمس!». وهذا في متناول الجميع. لذا، فإنّ الاقتراح الذي أقدّمه لكم هو أن تستعملوا الخبرة بينكم على جميع الصعد، فتترافقون في مسيرتكم. في أيّامنا هذه لا يمكن لأحد أن يقول إنّه منعزل. هناك الكثير من الاحتمالات للبقاء على تواصل، حتى لو كان المرء في أقصى بقعة في العالم. هناك الهاتف المحمول، وسكايب، والتواصل عبر الفيديو مع مدرسة الجماعة، ومحلّة تراتشي، وموقع شراكة وتحرّر، باختصار، هناك كلّ شيء! كم كان بودّي أن أملك كلّ هذه الأدوات المتاحة الآن عندما قابلت الحركة. لذلك فمن يريد أن نرافقه لديه كلّ ما يحتاج إليه. من يمنعك من استخدام هذه الأدوات؟ أنا مندهش من الوعي الحيّ للفتاة الهنديّة حول قيمة اللقاء الذي جرى لها، والقيمة المعرفيّة للقاء. لقد عرفت اختلافًا جديدًا، وشعرت بنظرة جديدة إليها، لدرجة أن لم يعد بإمكانها أن تنساه. في هذه الفتاة نشهد ما يخبرنا به دون جوسّاني: المسيح فيها ليس بعيدًا عن القلب، بل توغّل في إعماق قلبها. لذلك فهي ليست وحدها، وهي تحمل الرفقة في داخلها. لا يمكنها أن تنظر إلى أيّ شيء، وإقامة علاقة مع أيّ شيء دون إجراء المقارنة مع النظرة التي اكتسحتها، والتي تشكّلها الآن وتواصل اختبارها في علاقاتها مع الأصدقاء. ورغم عزلتها الحاليّة وسط اللاشيء، إلا أنّها لا تزال تعيش تلك العلاقة بقدر استطاعتها. إنّ رفقة المسيح تحدّدها ولهذا فهي تبحث عن وجهه في كلّ وجه تلتقي به في طريقها. إذا كنا نراهن حقًّا على حياتنا، مغتنين بكلّ ما وهبه لنا السرّ ولا يزال، يمكننا أن نقول ما قاله القدّيس بولس لمسيحيّي كورنثوس: «لا تعوزكم بعدُ أيّة نعمة»[170].

يوم الأحد الموافق 6 مايو / أيار، عُقد اللقاء الختاميّ لرياضة الأخويّة في أفيلا، بإسبانيا، التي كرز فيها دون خوليان كارّون، حيث استخلصنا منها ثلاثة أسئلة وأجوبة.

[170] راجع 1 كور 1، 7.

هل يعني الاصطفاء والاختيار أنّ هناك أيضًا «غير مصطفين»؟ بعض التصريحات عن الاصطفاء لم أفهمها بشكل كامل. أتفهم عدم التناسب بين النعمة والجدارة، لكنّ الاصطفاء يبدو غير عادل، وكأنّه شيء يأتي قبل الحرّيّة وكأنّ هناك «غير مصطفين».

خوليان كارّون. إذا أعطاك شخصٌ هديّة، أتعتبرها غير عادلة لأنّها تسبق حرّيّتك؟ لا، ولكن هل هناك أناس لا يعطيهم الله شيئًا؟
مهلا! يمكنك الاعتراض على ما تريد، ولكن لا يمكنك وضع ما قلته لتوّك موضع نقاش. ليس من العدل أن يعطيك شخص شيئًا قبل ممارسة حرّيّتك. بل هذا ما تنتظره بالذات. إذا أحبّك شخص، أيكون ظالمًا لأنّه يسبق حراك حرّيّتك؟ هذه هي نقطة البداية، خبرة أوّليّة نعيشها جميعًا، قبل أيّ تفكير. إن أوّل لفتة من الله كي يسمح للإنسان بالوصول إلى كمال مصيره ليست تفسيرًا: لو كان الأمر كذلك، لكنّا سريعًا في مأزق. اللفتة الأولى هي حقيقة – اختيار، تفضيل مجّانيّ تمامًا، المجيء للقياك – تجدك أعزل لأنّه يحدث قبل أن تتمكن من قولبته في طرق تفكيرك أو من وضعه موضع نقاش. إنّه مذهل. إن كانت هذه الحقيقة لا تحدّدنا قبل أيّ شيء آخر، فسوف نكون دائمًا عالقين، وأسرى مقاييسنا. لذلك كانت أوّل لفتة لله في العهد القديم مبادرة حرّة تمامًا، لم يكن لها أيّ دافع سابق لدى الإنسان. «لا لأنّكم أكثر من جميع الشعوب لزمكم الربّ واصطفاكم، فإنّما أنتم أقلّ من جميع الشعوب»[171].
الشيء نفسه يحدث عندما يذهب يسوع إلى بيت زكّا. فهو لا يذهب إلى هناك لأنّ زكّا رجل صالح، وهو يعلم أنّه خاطئ. وكانت ردّة فعل زكّا – يقول الإنجيل –أن «قبله فرحًا»[172]. هذه هي الخبرة الأولى، شيء أساسيّ للغاية: دهشة. ومع ذلك من الصعب، أو على الأقلّ ليس فوريًا، أن يظلّ المرء في هذا الوضع الأوّليّ؛ فبعدها بلحظة نتقوقع على أنفسنا. كما نرى في ردّة فعل أولئك الذين يرون يسوع يدخل بيت زكا. «كيف يكون هذا، أيذهب لتناول الطعام في منزل رجل خاطئ؟ إنّه لا يستحقّ ذلك! أهذا معقول؟»[173]. إنهم يعتبرونه غير عادل. هذه هي العثرة المسيحيّة.

---

171 سفر تثنية الاشتراع 7، 7.

172 لوقا 19، 6.

173 راجع لوقا 19، 7.

أن تتعدّى محبّة الله قياسنا وأن تنتمي عدالة الإنسان إلى نظام مختلف لهو أمرٌ تعلّمت في حياتي أن أقرّ به. وعلاوة على ذلك، أدرك أنّه عندما أقيس بمقاييس الإنسان، أجد نفسي في النهاية حزينًا ووحيدًا. من ناحية أخرى، يتحدّث مَثَلُ الأُجَراء اليوميّين عن الحبّ المتساوي للجميع، فهو يعطي الأخير كالأوّل، والأوّل، إذا كان يملك قلبًا بسيطا، فسوف يفرح للأخير. ولكن عندما تتحدّث عن الاصطفاء، يبدو لي أنّه يعني عدم اختيار شخص آخر.

أنا سعيد بأنّك تتصارع ومصطلح "اصطفاء"، لأنّنا معظم الوقت نعتبره أمرًا مفروغًا منه. فحقيقة عدم اعتبار الاصطفاء أمرًا مفروغًا منه هي عطيّة تلقيتَها اليوم. إنّها عطيّة أن يتمرّد فيك شيء ويجعلك تقول، «هذا ليس من العدل!». ولكنّك لست وحدك، إذ لديك العديد من رفاق الدرب، يرون أنّه يجب إزالة كلمة "اصطفاء" من الكتاب المقدّس، لأنّها تشير إلى أمر غير عادل.
بالنسبة لي لقد كان الأمر دائمًا على هذا الحال.
من المهمّ أن ندرك هذا الأمر: يبدو لنا أنّه غير عادل لأنّ اختيار واحد يعادل استبعاد الآخرين. نحن نفكر بهذه الطريقة لأنّنا لا نفهم معنى عمل الله، أي السبب الذي يجعله يختار. ما هي طريقة الله؟ يكفي قراءة فقرتين من الكتاب المقدّس لنرى أنّ الله، عندما يختار، لا يستثني أحدًا. الفقرة الأولى: «يريد الله أن يخلص جميع الناس ويبلغون إلى معرفة الحق»[174]، أي أن تدبير الله يخصّ الجميع، ويحتضن الجميع. والفقرة الثانية: «إذ كنّا خطأة، مات المسيح من أجلنا»[175]. مات من أجل الجميع، من دون استثناء أحد.
إذن، ما هي الطريقة التي استخدمها الله؟ لم يختر البعض لاستبعاد الآخرين، بل للوصول إلى الآخرين من خلالهم. لو كنا كالمحطات الأخيرة في مركز حوسبة كبير، فإنّ البيانات – في هذه الحالة الخلاص – سوف تصل للجميع تلقائيًا وفي وقت واحد وكلّ شيء سيبدو أكثر مباشرة. ولكن لتمّ تخطّي حرّيّة الإنسان. أمّا الله، الذي أرادنا أحرارًا، فيحترم حرّيّتنا من خلال دعوة البعض للردّ بحرّيّة، ومن خلالهم يدعو الآخرين للردّ بحرّيّة متساوية. من الضروريّ أن تفهم هذه الطريقة، لكي تتمكّن من أن تدرك، في الوقت نفسه، النعمة التي تلقيّتها وحقيقة أنك لم تتلقها لنفسك فقط، بل كي تصل إلى الآخرين من خلالك. يسوع لا يختار الاثني عشر لأنفسهم فقط، ولكي

[174] 1 تيموتاوس 2، 4.
[175] روم 5، 8.

يستطيعوا وحدهم التمتّع بشخصه، ولكن لإرسالهم إلى جميع أنحاء العالم، وحتى يتمكنوا من الشهادة لما يعنيه المسيح في الحياة. ما هو أخطر اعتراض يمكن أن تثيره البشارة المسيحيّة؟ إنّه ما أخبرني به طلابي في مدريد: «ما يقوله الإنجيل جميل، لكنّه لم يعد موجودًا، لا أستطيع لمسه بيدي». كيف يجيب الله على هذا الاعتراض؟ من خلال جعله إنسان اليوم يلتقي بشخص ما – شخص حقيقيّ، من لحم ودم، مثلك – يرى فيه حدوث ما نسمعه في الإنجيل، يحدث من خلاله ومن جديد الحدث الأصليّ.
بهذه الطريقة فقط يمكن لإنسان اليوم أن يبدأ بالاهتمام بالمسيح: فهو لم يفهم بعد أصل اختلافك، لكنّ اللقاء معك، مع شخص حقيقيّ، يستحثّ عقله وحرّيّته. يستمرّ الله، وفقا لتدبير ليس ملكنا، في دعوتك، ويمكنك الإجابة بنعم أو لا، فإن قبلته غيّر حياتك، وملأها فرحًا، وخصوبة، "مبرهنًا" للآخرين من خلال هذا التغيير عن حضوره.
والشيء نفسه فعله مع زكّا وتلاميذه، فقد اختارهم كي يستطيع الآخرين من خلالهم أن يلتقوا شخصًا يتحدّى عقلهم وحرّيّتهم، وذلك في الجسد وليس في أفكارهم، ولا بطريقة افتراضية أو في المنام.
هل كلّ هذا حقيقيّ؟ نعم، إنّه موجود وقد رأيتَه. لهذا السبب ليست طريقة الله غير عادلة: إنّها طريقة يتحاور فيها الله، بشكل ملموس وحقيقيّ وتاريخيّ، منحنيًا على طريقة فهم الإنسان – الجسديّة والتاريخيّة –، مع عقل وحرّيّة كلّ منّا. من الواضح، إذا كنّا نعني بالاصطفاء استبعاد الآخرين، فمن المفهوم أن ننظر إليه كأمر ظالم. أمّا إذا تصوّرناه كما هو فعلا، أي كوسيلة للوصول إلى الآخرين، فإنّ الاصطفاء لا يستثني أحدا. هذه هي طريقة الله، وهي طريقة تحترم حرّيّة الإنسان.

ماذا يعني أنّ الحرية تحدث في وقت واحد مع تحرّرنا؟ إنّ الدليل على أنّنا نعرف الله هو أنّنا أحرار، ونحن لا نكون أحرارًا إن لم يحرّرنا باستمرار، ولكنّه في الوقت نفسه يحتاج إلى حرّيّتنا لكي نتعرّف إليه. أشعر بالحاجة إلى فهم هذه الوحدة في الحياة اليوميّة، وكيف يحدث ذلك فيك، يا خوليان.

كما رأينا، نحن نفهم المعنى الحقيقيّ للكلمات من خلال الخبرة. على سبيل المثال، نحن نفهم ماذا يعني الحبّ عندما نشعر بأنّنا محبوبون، كما أخبرتنا صديقتنا التي كانت في الهند. إذ لم ينظر إليها أحد مثل زميلتها في الكليّة التي التقتها في مدريد، ولم تتخيّل أنّها يمكن أن تكون محبوبة بهذه المجّانيّة، وعندما تتخلّى عنها أمّها وتعلن أنها لم تعد ترغب برؤيتها، يصبح من الواضح بالنسبة لها أنّ عليها أن تكون محبوبة لكي تفهم معنى الحبّ، لتكون قادرة على الحبّ. نفس الشيء يحدث مع الحرّيّة: نحن نفهم

ما هي الحرية من خلال الخبرة. لهذا السبب، قال لنا دون جوسّاني دومًا، بشكل تربويّ، أنّه إذا أردنا أن نفهم ما هي الحرّيّة، فبدلًا من البدء من الاسم، أي من التعريف (الذي سيقودنا إلى مناقشات لا نهاية لها)، يجب أن نبدأ من الخبرة، التي يشار إليها بالصفة: متى تشعر بأنّك «حرّ»؟ بما أنّ الإنسان يستطيع فهم الأشياء بهذه الطريقة فقط، أي من خلال الخبرة، فإنّ الله، في عطفه الفريد، ينحني على حاجتنا. ولكي يفهم شعب إسرائيل ما هي الحرّيّة، يجعله الله يختبر التحرّر: فهو يُخرجه من مصر، ويحرّره من العبوديّة. لقد خُلق الإسرائيليّون، مثلهم مثل كلّ البشر، أحرارًا، لذلك كانت الحرّيّة تنتمي إلى طبيعتهم. لكنّهم في مصر لم يشعروا بالحرّيّة. لقد كانوا عبيدًا. نحن أيضًا أحرار بطبيعتنا، ولكن في نفس الوقت لا نشعر بالحرّيّة في الظروف، لدرجة أنّنا نختنق. عندما تحرّر شعب إسرائيل من مصر، عاش خبرة الحرّيّة والتحرّر وبدأ يثق بالله، فهو شعر بالحرّيّة، وبدأ في التنفّس، وتوقف عن الاختناق في العمل القسريّ. ولكن بعدها بفترة وجيزة كان هناك العديد من الثورات التي تبعت خبرة التحرير هذه. وكما رأينا، استسلم شعب إسرائيل مرارًا وتكرارًا لادّعاء كونه قادرًا على منح نفسه الحرّيّة، ممّا أدى إلى مزيد من العبوديّة. هذا ما يحدث لنا أيضًا. لكي نكون أحرارًا، من الضروريّ قبول الشرط الذي يجعل خبرة الحرّيّة الحقيقيّة ممكنة: أن يتمّ تحريرنا. وهكذا نحن، الأحرار بطبيعتنا (نحن لا نتعرض لآليّات الغريزة)، نختنق في الظروف، لا ننجح في قول "أنا" حتى العمق: لسنا أحرارًا. ولهذا السبب غالبًا ما أسأل: كم عدد الأشخاص الأحرار الذين تعرفونهم؟ الأحرار في الواقع، وليس في خيالهم. يجب أن ندرك أنّنا جميعًا أحرار بطبيعتنا، لكنّ الناس الأحرار في الواقع، وليس في غرفة نومهم، في العالم الافتراضيّ، في أحلامهم، بل في الحياة اليوميّة، في العمل، في المنزل، مع الأصدقاء، في الظروف –هم قليلون حقا. على هذا المستوى، يمكننا إدراك الفرق الذي تقدّمه بادرة الله، معترفين بأنّ الحرّيّة تحدث في وقتٍ واحد مع تحرّرنا. لفهم ما إذا كنّا أحرارًا، إذن، يكفي أن نتطلّع إلى أنفسنا في الواقع، في الظروف المحسوسة، لنعرف ما إذا كنّا نتنفّس حيث نعيش. فإذا وجدنا أنفسنا نشكو من أمور لا تسير على ما يرام، فهذا يعني أنّ الحرّيّة فينا هي خيال محض، في الحقيقة. هذه هي الطريقة التي يمكن لكلّ منّا التحقق، بغضّ النظر عن كلماته وتفسيراته أو نقاشاته، إذا كان حرّا حقا، ومن أو ما الذي يجعله حرّا. إنّ العلامة على قبولي كعطيّة ما أتلقاه لحظة بلحظة من الله هي تحرّري. على العكس من ذلك، عندما أدّعي امتلاكي لحرّيّتي عندما أتصوّرها كحرّيّة ذاتيّة، وعندما لا أعود أشعر بحاجتي وأبتعد عن المصدر الذي يعطيني حرّيّتي، فإنّها تختفي، وأبدأ في الاختناق. لذلك نحن دائمًا

بحاجة إلى تلقي التحرّر وقبوله. لهذا السبب، قال صديقتنا الهنديّة: «هناك نقطة صغيرة تتوقف عليّ»، ألا وهي الاعتراف بكلّ ما حدث لها.
لا توجد حرّيّة من دون أن أقبل التحرّر الذي يريد الربّ أن يعطيني إيّاه. فلكي يحرّرني يحتاج الله إلى أن أسمح لنفسي بالتحرّر. فالله لا يريد أن يدخل حياتنا مثل فيلٍ إلى محلّ كريستال، أو مثل دبّابة تسوّي حرّيّتنا بالأرض، دون أن يطلب منّا الإذن. إنّ الله يحترم حرّيّتنا لدرجة أنّه يعطينا كلّ شيء، لكنّه ينتظر ويستجدي نَعَمَنا، حرّيّتنا، لكي يدخل: «هل تقبلني؟». «هل يريد أحد أن يتبعني، أن يتبع هذه الخبرة؟». يقدّم لنا الله أيضًا طريقة معصومة عن الخطأ لفهم ما إذا كنا نتبع دعوته: خبرة المائة بدل الواحد: «من يتبعني سينال مائة ضعف»[176]. إنّها ليست مسألة مناقشات أو تفسيرات، فهي ليست مفيدة. يمكنك معرفة ما إذا كنت تقبل ما يعطيك إيّاه الربّ من خلال التحقق في الواقع ما إذا كانت حياتك أكثر إنسانيّة، وأكثر حقيقة بمائة ضعف، ما إذا كانت حياتك تتنفّس. أنا أعيش هكذا، ليست لديّ أيّة خبرة أخرى أخبركم عنها. عندما تتبع تنفّس. وعندما لا تتبع، تختنق. لأنّ الحرّيّة تُعطى لنا دائمًا ضمن علاقة، وهذا ما تعلّمناه من كلّ التاريخ الذي سبقنا. في مرحلة معيّنة، قد نعتقد أنّه، بما أنّنا «نعرف أصلا»، بما أنّنا تلقينا، فيمكننا أن نتوقّف عن تلقي هبة الله وقبولها واتّباعها، لكنّ الأمر ليس كذلك، فهذه ليست خطوة نتخطاها، وليست هناك لحظة لا أعود فيها أتلقى وأقبل. هناك فقط وعيٌ أكبر فأكبر بضرورة قبوله من طرفي. لأنّني كلما فهمتُ بماذا يتعلق الأمر، وكلما فهمت أنّ خبرة الحرّيّة تُعطى لي، أدركتُ أنّ الإمكانيّة الوحيدة لأن أكون حرًا حقًا، لأن أقوم بخبرة التحرّر، هي أن أقبلها من الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يعطيني إيّاها والذي يجعلها ممكنة. إنّه قرار لا يمكننا تفويضه لأيّ شخص آخر.

يهمّني أن أفهم بشكل أفضل دور الرفقة في هذه المسيرة. أنت تتحدّث عن «الرفقة» كعون «ضدّ تغييب الأخلاقيّة». ومرّة أخرى: «"يجب أن تذهب رفقتنا إلى ما هو أعمق وأعمق" [...] يجب أن تقودنا [...] أن تدفعنا إلى "علاقة عميقة وشخصيّة معه"، مع المسيح». يهمّني للغاية لأنّه، بفضل المسيرة التي قمت بها هذا العام، أرى ضرورة الرفقة التي تتحدّث عنها. أتعرّف إلى بعض الوجوه التي هي رفقة، لكنّني أدرك أننا طائشون جدًا، بدءًا منّي. أشعر بالحاجة لأن نكون حقا عونًا لبعضنا البعض. ماذا يعني أن تنتمي إلى مكانٍ، ان تنتمي إلى هذه الرفقة، ما وراء الشكليّة؟

[176] راجع متى 19، 29.

قلت في المقدّمة: «ولكن عند هذا المستوى، يوضح جوسّاني، على مستوى تعرّفي إليك، أيّها المسيح، أي على مستوى القلب، لا يمكن لأحدٍ أن يفوّض إلى غيره إجابة لا يمكن إلا أن تكون صادرة عنه هو ». ثم نقلت عن جوسّاني: «إنّ القلب هو الشيء الوحيد الذي يبدو وكأن ليس فيه شركاء». أدرك أن عدم وجود شريك هو أكبر علامة على عظمتي. لا أستطيع أن اعتبره أمرا مفروغًا منه في لحظة الشروع في مسيرة معرفة المسيح. في بعض الأحيان، نعتقد أنّ عدم الرضا والحزن وعدم سير الأمور على ما يرام والتحرّر من الأوهام وما إلى ذلك، هي جوانب يجب التحكّم بها، وتهذيبها، وإلغاؤها. غير أنّها صدى للقلب الذي تتحدّث به، ومكان أعظم تفضيل لله نحوي، وأعظم رفقة. إنّ القلب، الذي لا معاونين له، هو أفضل معاون لي. ولكن في كثير من الأحيان أرى أنّنا، نحن البالغين، لا نملك الشجاعة للبدء من هذا المعاون الذي هو القلب. هل يمكنك مساعدتنا في هذا المجال؟

أبدأ بالسؤال الأول. إن السرّ، إذا كنّا منتبهين لكيفيّة وصفكِ للأشياء، يمنحنا دائمًا بعض الخيوط. وما هي الخيوط التي يعطيك إيّاها السرّ من أجل أن تفهم ما هي الرفقة؟ أنت تعترفين بأنّ بعض الوجوه في خبرتك هي رفقة. ربّما ليس كلّها، لكنّك تعترفين بوضوح بأنّ بعضها عبارة عن رفقة. قالت صديقتنا الهنديّة من جديد: «أعتقد أنّ المسيح كان مثلكم، كان شخصًا يساعد الآخرين على فهم أنفسهم، على النظر إلى قلوبهم»، على معرفة الحميمة الحقيقيّة لكلّ واحد و«على فهم من يكون». وحدث الشيء نفسه ليوحنا وأندراوس، فقد بدآ يفهمان من يكونان لأنّهما التقيا بشخص، هو يسوع، وبدآ يفهمان من خلال اتباعهما لهذا الشخص. هذه هي طريقة الله وأسلوبه، من إبراهيم حتى اليوم. لذا، يمكنكِ أن تفهمي من خلال اتباع هذه الوجوه ومراقبتك لكيفيّة حدوث ما ترغبين به لك في داخلهم. المسألة الأولى تتعلّق إذن بالانتباه. إنّها ليست مسألة ذكاء، قبل كلّ شيء. لأنّه يمكن للمرء أن يقول: «أنا أذكى وهذا جاهل، فكيف يمكنه أن يقول لي شيئًا مثيرًا للاهتمام؟». صحيح، قد يكون بائسًا، لكن الربّ يستخدمه – حتى البائس – ليدعوك أنت. لذا، فإنّ المسألة الأولى هي امتلاك الانتباه إلى جانب الرغبة في دعم الطريقة التي يدعوك بها السرّ: من خلال تلك الوجوه. وهكذا تكتشفين ما هي الرفقة الحقيقيّة في حياتك. تكتشفينها وتعترفين بها، لكنّك لا تقرّرين أنتِ ذلك. في بعض الأحيان تفضّلين آخرين هم أكثر لطفًا، أو تشعرين معهم بأنّك على أفضل حال، لكنّك لا تقرّرين من يساعدك حقًا. المطلوب منك هو أن تتعرّفي عليه: ففي علاقتك ببعض الأشخاص، تعودين إلى البيت ولديك شيء ما تركوه في داخلك، وترين في اليوم التالي أنّك تتعاملين بشكل مختلف مع

نفسك ومع الواقع، وتنظرين إلى الأمور بطريقة أخرى. عندها تبدئين تدركين أنّ هذه الرفقة هي التي تجعلك أكثر أنت نفسك، والتي تجعلك تذهبين إلى عمق كلّ شيء.
لهذا السبب قلنا بالأمس إنّ الرفقة هي المكان الذي يولّده المسيح والذي يساعدنا على جعل أنفسنا واعين لما نحن عليه. وما هو العون الأعظم الذي تمنحك إيّاه؟ ما هو العون الأعظم الذي قدّمه يسوع لتلاميذه؟ ما هي الرفقة التي يعطيها يسوع لهم؟ إنّهم يُخرجهم من اختزالاتهم، ويوقظ قلوبهم، ويولّد فردًا قادرًا على النظر إلى كلّ الواقع، حتى أصله. ماذا يفعل يسوع عندما يتصرّف كرفيق درب لتلميذي عمّاوس؟ لقد كانت أمامهما قائمة طويلة من حقائق يسوع ومعجزاته، ومع ذلك كانا يسيران مليئين بالشكّ. يقترب ذلك الغريب، ويسألهما فيما يتناقشان، فيقولان له: «أفأنت وحدك غريب في أورشليم ولم تعلم ما حدث بها في هذه الأيّام؟»[177]. لقد كان يعرف جيّدًا ما حدث ... ولكن ماذا فعل يسوع؟ ما هي الرفقة التي يقوم بها؟ قال «أقلبكم بطيء الفهم؟ أأنتما غبيّان حتى لا تفهما ما حدث؟»[178]. يدفعهم يسوع لتوسيع أفق نظرهم، لإعادة فتح قلبهم وعقلهم. في الواقع، عندما يتعرّفان عليه عند كسر الخبز، سيقول أحدهما للآخر: «أما كانت قلوبنا مضطرمة فينا حين كان يخاطبنا في الطريق؟»[179].
ما هو أعظم عون قدّمه لهما يسوع؟ لقد ولّد فيهما أنًا قادرة على التعرّف عليه. كلما استيقظ قلبنا، فهمنا أنّه لا يمكن أن يرضيه إلا الشخص الذي خلقه والذي يجد فيه وحده تحقيقه. المسيح هو الوحيد الذي ينقذ الرغبة، والذي يجعلها تتجلى بكلّ مداها، في لانهائيّتها، مستجيبًا لها. ولكن كلما اكتشفت طبيعة نفسي، وعدم قابليّتها للاختزال، وتفرّدها، أصبحت واضحة طبيعة مسؤوليّتي غير القابلة للإنابة، إذ لا أستطيع أن أفوّض إلى أيّ شخص مسؤوليّة قول "أنا"، وقول "نعم" لمن يوقظني ويسألني أن ينقذني.
يخبرنا جوساني بأمور نبدأ بفهمها فقط عندما تحدث فينا، عندما نختبرها. مثلا عندما يخبرنا أنّ الأنا «هي علاقة حصريّة مباشرة مع الله»[180]. إنّها الأنا "خاصّتي" والعلاقة الشخصيّة "خاصّتي" مع السرّ: لا أستطيع تفويضها لأحد. فأنت، وأنا، وكلّ واحد منا فريد ؛ نحن لسنا واحدًا من القطيع الكبير، وجزء من آليّة عالمية، لا. والسرّ

---

177 راجع لوقا 24، 18.

178 راجع لوقا 24، 25.

179 راجع لوقا 24، 32.

180 L. Giussani, *All'origine della pretesa cristiana*, Rizzoli, Milano 2011, p. 106.

يريد أن يقيم مع كلّ منا علاقة فريدة من نوعها، علاقة حميمة فريدة من نوعها. أنت أنت مدعوّ، وستكون أنت من يقول "نعم" أو "لا". لا يمكن تفويض هذه الإجابة.
لطالما أعجبتني المسيرة التي يجعلنا جوسّاني نقوم بها من خلال كتب "المسيرة". في البداية، في الفصل الأوّل من الحسّ الدينيّ، يجعلنا ندرك أنّ لدينا معيارًا للتمييز، لاعتراض ما يحتاجه قلبنا. ثم يتناول كامل المسيرة، فيقدّم الادّعاء المسيحيّ، وحدث المسيح، ومسيرة التلاميذ، ثم الكنيسة، كمكان بقاء المسيح في التاريخ، وبالتالي مسيرتنا نحن أيضًا. وفي نهاية كلّ هذه المسيرة يقول: «إلى ماذا يعهد المسيح بكلّ ما فعله أمامك؟ ما هو المعيار النهائيّ للحكم؟ قلبك». المسيح لا يريدنا أن نلتزم به آليًا. يريدنا أن نلتزم به لأنّنا نعترف به كجوابٍ على حاجة قلبنا، وإلا فإنّه سيبقى خارجنا. هل تفهمون لماذا لا يمكننا تفويض الـ"نعم" لأيّ شخص؟ يقول جوسّاني إنّه لا يمكن لأحد أن يغشّ، فالمسيح لا يخدعنا، ولكن لا يمكننا نحن أيضًا خداعه.هذا ما يجعل الحياة دراميّة حقا. بهذا المعنى، ليس للقلب شركاء. يؤكد فون بالتازار «إنّ الحبّ الذي يعطيني الله إيّاه يجعلني ما أنا عليه في الواقع وبشكل نهائيّ: إنّه يُقيم الأنا الذي يريد الله أن يراه أمامه وله وصوبه». والحبّ الذي يكنّه لك هو الوحيد الذي يمكنه أن يتوافق تمامًا مع قلبك. أمّا الآخرون، وبقدر ما يعيشون بدورهم هذه العلاقة، فيساعدونني على عدم الاكتفاء بشيء أقلّ من هذا، ويجعلونني أذهب إلى أعماق حاجتي الإنسانيّة.
لذا فإنّ تدبير الله بكامله هو كي نستطيع أن نلتقي بالشخص الوحيد الذي يجيبنا. وإذا لم تكن هناك إجابة لنا، لكلّ واحد منّا ، فلن تكون هناك إجابة للآخرين، وعندها سيظلّ العالم بلا إجابة. إذا لم نختبر المسيح شخصيّا كإجابة على التطلّع اللامتناهي لقلبنا، فلن نكون قادرين على توصيله للآخرين على أنّه أمر جيّد بالنسبة لهم. وحده من يقوم بهذه المسيرة، من يعيش هذا الخبرة، يمكنه اقتراحها على الآخرين مع اليقين بأنّها ما يسعون إليه هم أيضًا بشكل سرّيّ، متلمّسين طريقهم. هذه هي أعظم مغامرة للحياة: إنّ التحقق كلّ يوم بشكل متزايد ما حدث لنا، اللقاء مع المسيح، هو الشيء الوحيد القادر على الاستجابة الكاملة لاحتياجات القلب. أن تكون هذه الألفة مع المسيح قد أصبحت العامل الحاسم في حياتنا، إنّما نتحقق منه في حقيقة أنّنا أحرار في خضم الظروف. بهذه الطريقة فقط يمكننا أن نقدّم مساهمة حقيقيّة للتوق إلى الحرّيّة الكامن لدى الجميع. لهدا السبب استرعت دائمًا انتباهي الجملة التالية لبالتازار:
«طالما أنّ المقصود بالمسيحيّ هو أوّلا التقاليد والمؤسّسات، فستخلو الساحة لحركات الحريّة في العصر الحديث» – التي تسمّى اليوم "شعبويّة" – لأنّها لن ترانا نتحدّاها، لن نمثل أيّ تحدّ لها. «إنّ المواجهة الحقيقيّة تكون فقط عندما يسعى المسيحيّ جاهدًا

[...] لتبيان أنّ انفتاح الله الذاتيّ في يسوع المسيح إنّما هو دعوة للدخول في فضاء الحرّيّة المطلقة، حيث لا تنتشر سوى حرّيّة الإنسان»[181].

[181] راجع الصفحتين 22 و 64.

القدّاس الإلهيّ

قراءات الليتورجيا: أعمال الرسل 9، 26-31، المزمور 21، رسالة يوحنا الأولى 3، 18-24، يوحنا 15، 1-8

عظة دون خوليان كارّون

لا يوجد يوم لا تضع فيه الليتورجيا أمام أعيننا مبادرة الله الثابتة، وهي اليوم تقوم بذلك في رواية توبة شاول، الشخص الأبعد عن تفكيرنا، ومضطهد المسيحيّين الأوائل. ولكن لا شيء مستحيل عند الله. هنا يرى المرء هذه الحرّيّة الإلهيّة: فالله يختار شخصًا مثل بولس ليبيّن أنّه هو دائمًا من يأخذ زمام المبادرة: «أنت عزيزٌ في عينيّ»[182]. وفي علمه بهذا التفضيل، سيقول بولس في رسائله: «أنا أعرف بمن أثق»[183]. لم يكن أحد قد فهم ما حدث له على الطريق إلى دمشق، ولكن كان من الواضح على الفور أنّ شيئًا هامًا قد وقع له، فقد بدأ يجتمع مع أولئك الذين سبق أن اضطهدهم. من الواضح أنّ مسيحيّي دمشق، الذين رأوه في وسطهم، كانوا خائفين منه، وغير قادرين على تصديق أنّه أصبح تلميذًا ليسوع، لكنّه استمر في البقاء معهم، وجاء في أعمال الرسل أنّه «كان يتحدّث ويتناقش ويذهب ويجيء إلى أورشليم مع جميع الآخرين». أن يكون قد حدث له شيء كان أمرًا ملموسًا، محسوسًا، عبر تردّده على رفقته الجديدة من الأصدقاء، الذين بدأ يلعب معهم مباراة الحياة.

هذا هو التحدّي الذي يواجهه كلّ منّا، في أيّ لحظة: «هذه هي وصيّته: أنّنا نؤمن باسم ابنه يسوع»، كما فعل القدّيس بولس. ولكن كيف نبقى في هذا الموقف؟ لا مقطع من الإنجيل يمكنه تلخيص ما قلناه في هذه الأيّام أفضل ممّا سمعناه للتوّ. لا توجد أيّة إمكانيّة للحياة منفصلة عن الربّ. مع مثل الكرمة والأغصان يقول يسوع كم هو حاسم أننا نبقى متعلّقين به، فإذا انقطعنا عنه، جففنا ولم نؤتِ بثمار. كما ترون، تتردّد هذا الصباح نفس الكلمة التي استخدمناها بالأمس: الثبات. إذا كنّا نريد أن نؤتي بثمار، فإنّنا بحاجة إلى شيء واحد فقط: أن نبقى متعلّقين بالكرمة. يقول يسوع للتلاميذ: «كما أنّ الغصن لا يستطيع أن يؤتي بثمر من عنده إن لم يثبت في الكرمة،

---

182 سفر إشعيا 43، 4.

183 راجع 2 تيموتاوس 1، 12.

كذلك أنتم أيضًا إن لم تثبتوا فيّ». لأنّي «أنا الكرمة وأنتم الاغصان. من يثبت فيّ وأنا فيه يأتي بثمر كثير». لذلك، إذا أراد أحدٌ أن يؤتي بثمر، فههنا إشارة بسيطة، في متناول الجميع. فيسوع لا يطلب منّا بذل أيّ جهد خاصّ أو الخضوع لممارسة تقشفيّة. إنّه يضع شرطًا واحدًا فحسب: أن نظلّ مرتبطين بالكرمة، وهي هو. والتحقّق ممّا إذا كنا مرتبطين بالكرمة هو الثمر الذي نحمله: مائة ضعف، وطريقة جديدة للعيش في الواقع. هذا هو ما يشهد للربّ. « إن تثبتّم فيّ» فستأتون بثمار وبهذا «يتمجّد أبي». من خلال الثمر، الذي سيشاهده الآخرون أيضًا، سيظلّ مجده يتألق في الواقع، في تاريخ البشر، لأنّ المجد هو روعة الحقّ.

كلّ ما قلناه منذ مساء يوم الجمعة حتى هذا الصباح هو من أجل أن يتجلّى هذا المجد. يجب علينا الا ننفصل عن الكرمة لكي يتألق مجده على الأرض من خلال الثمر الذي فينا، والآتي منه. وهذا يمكن أن يحدث وسط كلّ حدودنا وأخطائنا، لأنّ الثمر – وهو تغيير لإنسانيّتنا يستحيل من غير ذلك – هو عمله فينا. وإذا تركناه يدخل، إذا تركناه يمسك بنا، فلا شيء سيمنع تجلي مجد الله من خلال الثمرة التي سيُنبتها، في ذهول، أمام أعيننا، في حياتنا. قال يسوع: «بدوني لا تستطيعون أن تعملوا شيئًا»، إذا لم نتعلم هذا، فسوف نصبح أغصانًا جافة تُطرح في النار.

فلنسأل لكلّ واحد منّا أن نكون معًا، كما كان القدّيس بولس مع أصدقائه الجدد، لهذا الأمر فقط: أن نتعرّف إليه، أن نظلّ متعلقين بالكرمة التي هي المسيح، كي نعيش علاقة تعيد إلينا شبابنا باستمرار، حتى نتمكن من أن نشهد لجميع إخواننا البشر من هو المسيح وبأنّ أبا يسوع هو أصل كلّ شيء.

إشعارات
خوليان كارّون

الصندوق المشترك

في العام الماضي، بعثنا برسالة إلى أولئك الذين لم يعطوا لسنواتٍ أيّة إشارة على مشاركتهم في مبادرات الأخويّة ورسالة أخرى إلى الذين لم يسدّدوا في العام السابق يورو واحدًا للصندوق المشترك. كان من المدهش أن نرى جواب آلاف الأشخاص، الذين استجابوا بشكل إيجابيّ لهذه المبادرة – التي كانت بادرة صداقة – حتى من خلال إيضاح أوضاعهم الصعبة التي أمكننا التدخّل فيها بطرق مختلفة. سأقرأ لكم بعض الردود.

يكتب أحدهم: «أردّ على رسالتكم التي ذكّرتموني فيها أنّني لا أشارك في الرياضة ولا أسدّد اشتراكي في الصندوق المشترك. هذا صحيح، لقد شهدت السنوات الأخيرة تقهقرًا في علاقتي بالحركة وبالتالي بعض الابتعاد. ذكّرتني الرسالة بالعديد من الأشياء الجميلة التي عشتها في الحركة. والآن أنا أتابع أكثر بقليل ودفعت 60 يورو للصندوق المشترك (هذا كلّ ما يمكنني القيام به) لأشعر بأنّني جزء من الحركة».

يقول أحدكم: «أشكركم جزيل الشكر على تلقيَّ دعوة إماتة للصندوق المشترك. لمدّة سنواتٍ لم نتمكن حتى من إعطاء تلك الرسوم الصغيرة التي وعدتُ أنا وزوجي بدفعها. لقد مررنا ولا نزال بفترة صعبة وإشكاليّة. لقد سألت زوجي ما إذا كان بإمكاني أن أقوم بتحويل مصرفيّ كي أفي ولو بجزء من "ديننا" للصندوق المشترك، ولكن مع السؤال: "أبإمكاننا ذلك؟". وكانت إجابته مفاجأة حقيقيّة. "طبعًا، بالتأكيد، قومي بذلك". لقد كانت إجابته تعزية بالنسبة لي، وسمح لي بأن أحكم بقلبي فقط».

وهنا شهادة أسرة: «لا ندفع للصندوق المشترك، أنا وزوجي، منذ عامين، أي منذ ان بقي دون عمل مرّة أخرى. أنا أعمل بدوام قصير. في أيلول / سبتمبر الماضي، وجدت وظيفة ثانية لمدّة عام، وظيفة صغيرة ولكنّها كافية لتلبية الحدّ الأدنى من احتياجات عائلتنا. بالنسبة لعام 2018، أودّ استئناف دفع الرسوم، وخفضها إلى 5 يورو شهريًا لكلينا. أنا آسفة جدّا، ولكن في الوقت الحالي لا يمكننا القيام بخلاف ذلك. ومع ذلك، أودّ أن أستأنف تسديد اشتراكي للصندوق، إذ لا أريد أن أفقد الإحساس بهذه البادرة، فقد انتظرت طويلًا، كما لو أنّني افتقدت شيئًا!».

وكتب صديق آخر: «لقد أثارني كثيرًا مقطع في الرسالة التي وصلتني: "في العلاقة بالمسيح لا يوجد مقياس. لا يوجد مقياس، لا يوجد سوى القلب: فإمّا أريده أو لا

أريده". قبل حوالي ثلاثين سنة، كنت مع بعض أصدقاء الحركة نتخيّل ما نرغب به في المستقبل: واحد الفوز ببطاقة يانصيب مليارديريّة، وآخر المشاركة في الألعاب الأولمبيّة، أمّا أنا فأذكر أنني أجبت: "أن يلمسني المسيح أكثؤ فأكثر"، وكان جوابًا فاجأ الجميع، بمن فيهم أنا. لقد مررت بالعديد من التقلبات منذ ذلك الحين، بما في ذلك الفصل من عملي. واضطررت إلى خفض اشتراكي بشكل كبير. كنت أرغب في أن أبقى مخلصًا، ولكنّي لم أعد أسدّده في ما بعد. وفي أيلول / سبتمبر ايقظتني رسالتك، وهكذا، وبعد تخفيض جديد للمبلغ، تمكّنت من تغطية المتأخّرات، واليوم، وبعد جمعي لبعض المستحقات، يمكنني زيادة اشتراكي قليلا. إنّه مبلغ بسيط، أعرف ذلك، لكنّ الأمر كذلك الآن، وبعدها سنرى. شكرًا على أبوّتك، أصلي من أجلك كلّ يوم».

كما ترون، لقد كان إرسال هذه الرسائل مناسبة لاستئناف العلاقة مع حياة الأخويّة. أمّا البعض الآخر فقد أخبرنا بأنّه تبنّى مسيرة أخرى.
لقد كان قرار كتابة الرسالتين محكومًا بشغف نحو من ينوي اتباع مسيرة الأخويّة، بحيث يمكننا أن نرافقه بكلّ الجدية الممكنة. في كتاب "رفقة غريبة"، قرأنا أنّ دون جوسّاني، وخلال أوّل رياضة أخويّة، قال متحدّثا عن الصندوق المشترك كمساعدة لعيش الفقر: «ليس الفقر عدم امتلاك ما نديره: الفقر هو أن ندير واضعين نصب أعيننا كهدفٍ أسمى أن يكون كلّ شيء وفقًا ملكوت الله، وفقًا الكنيسة»[184]. وعلى وجه التحديد أن نعيش وفقا للكنيسة التي نريد أن نساعدها الآن أيضًا. وبهذا المعنى، فإنّ الشهادة التي قدّمها لنا أصدقاؤنا الفنزويليّون تثير إعجابي، ففي ظلّ الوضع المأساويّ من الفقر الشامل (الناجم عن التضخّم الكبير الذي يعانون والذي نعرفه جميعًا) يحتلّون المرتبة الأولى بين الأمم من حيث الأمانة لدفع اشتراكات الصندوق المشترك! يثير الإعجاب أنّهم كتبوا لنا للتعبير عن أسفهم لتقليص مبلغ الصندوق المشترك في عام 2017 والذي مردّه إلى « تغيّر سعر الصرف بين اليورو والبوليفار بين النصف الأوّل من العام ونهاية العام من دون تغيير مقابل في المرتبات. ولكن على الرغم من الأزمة، ظلّ العديد من الأعضاء على ولائهم لبادرة الصندوق المشترك». مثل هذا الولاء لا يمكنه إلا أن يستحثّنا!

مجلة تراتشي

أودّ أن أشارككم أمرًا جديدًا أعتقد أنّه سيمثّل استحثاثًا آخر لنا للمقارنة مع مضامين

[184] L. Giussani, *Una strana compagnia*, op. cit., p. 106.

هذه الأيّام. تذكرون بالطبع أنّنا افتتحنا في العام الماضي، وبالتزامن مع الرياضة، الموقع الجديد ووسائل الإعلام الاجتماعيّة للحركة، لأنّ التغييرات التي تسبّب بها الإنترنت دفعت في هذا الاتجاه. كان لهذا الأمر تأثير واضح على طريقة إصدار تراتشي. لذلك فإنّنا نقترب من تراتشي جديدة، وهي متاحة منذ الآن للجميع. ستظهر مجلتنا في حلّة متجدّدة بالكامل شكلا ومحتوى.

لماذا نواصل القيام بإصدار تراتشي؟ لماذا تغييرها؟ هذه النقطة يبيّنها ما قاله لنا دون جوسّاني في هذا الصدد: «التواصل هو نتيجة [...] بُعدين: وعي نقديّ ومنهجيّ لحياة المرء وإنسانيّة جديدة. لكنّ البعدَين الأوّلين لا يمكن أن يتواجدا إذا كان البُعد الثالث مفقودًا، أي شغف إيصالنا للآخرين مبدأ الحياة ذلك، حقيقة الحياة تلك، وحدتنا تلك ، ذلك الحدث الذي حرّرنا»[185]. وقال مرّة أخرى: إنّ الصحافة – لم تكن هناك وسائل اتصال رقميّة – «هي الأداة الرئيسيّة لزيادة الوعي الذاتيّ لدينا والتواصل مع الآخرين»[186].

ضمن هذا الأفق، أردنا التعامل مع التغيّرات الهائلة والمفاجئة التي نلاحظها منذ سنوات والتي تدعونا إلى تغيير ضروريّ: ثورة الاتصالات الرقميّة، والتحدّيات التي يواجهها الجميع في مجال النشر، وتغيّر العادات التي تشمل جميع الناس، بمن فيهم نحن، وهلمّ جرّا.

ومن هنا جاءت محاولة تجديد المجلة، مع أخذ كلّ هذه الأمور في الحسبان. تريد تراتشي الجديدة إكمال ورفد الاتصالات التي تتحقق عبر الإنترنت، والاستجابة قبل كلّ شيء للحاجة إلى تحليل متعمّق، وإيفاء بعض المواضيع المختارة في حينها حقّها من المساحة اللازمة من أجل فهمها والتأمل بها والحوار بشأنها. إنّنا نقول عبر تراتشي الجديدة: «في خضمّ هيجان الأيّام والأسابيع والشهور، خذ استراحة، توقف!». قد يناسبنا. تراتشي هي هذه المحاولة – يجب أن نتذكّر دائمًا أنّها عبارة عن محاولة – للفت الانتباه إلى موضوع، إلى شخص، إلى اختبار، إلى موقف، نعتبره مناسبًا حقًّا بالنسبة للمسيرة التي نقوم بها.

سيستمرّ موقع الحركة والشبكات الاجتماعيّة في متابعة الإيقاع يومًا بيوم، وحدثا بعد حدث، وحكمًا بعد حكم، ويرافق مسيرة الجميع بسرعة عبر النصوص الأساسيّة،

---

185 L. Giussani, *Dall'utopia alla presenza (1975-1978)*, op. cit., p. 39.

186 FRATERNITÀ DI COMUNIONE E LIBERAZIONE, *Documentazione audiovisiva*, Incontro dei preti di CL dell'alta Italia, Idice San Lazzaro di Savena (BO), 20 maggio 1985.

بدءا من مدرسة الجماعة.
إنّنا نشعر بالجوع لكلّ ما يمكن أن يساعدنا على توسيع العقل، وتعميق موهبتنا، والتحقق من إيماننا. وبنفس الطريقة، لدينا الرغبة في التواصل مع الآخرين، والاهتمام بهم، وقطع مسافة من الدرب معهم، كما حدث، على سبيل المثال، طوال مسار اللقاءات، بدءا من تقديم "حياة دون جوسّاني" و"الجمال الأعزل" داخل إيطاليا وخارجها.
إذا كنا لا نزال نصدر تراتشي، وإذا أردنا تغييرها عبر إبراز علة وجودها باعتبارها مناسبة للتربية واللقاء، فذلك لهذا الشغف، لهذا الجوع الذي يشكّلنا. من الصعب التعمّق في الدرب من دون التزام جدّيّ واهتمام. فبدونه سنكون في نهاية المطاف أسرى عقليّة الجميع.
كيف يمكننا أن نصبح جميعًا روّادًا في هذه المحاولة؟ إنّ همّنا، همّي، هو تربويّ فحسب. أتبنّى كلمات دون جوسّاني: «أرجوكم ألا تعتبروها دعاية لـ Litterae [وهذا ينطبق اليوم أيضًا على تراتشي]، بل كإلحاح على شراكتنا»[187]. كان دون جوسّاني يقول لنا دائمًا إنّ المجلة هي «جزءٌ من مشروع الحياة، وهي أداة للمشروع»[188]، و«مرآة تعكس حيويّة الحركة. وهذا يعني ضمنًا مشاركة إبداعيّة»[189]. لذلك اكتبوا وأشيروا علينا بالموضوعات والأحداث والأشخاص، لأنّ مجلتنا «مساحة يصل إليها بحرّيّة كلّ من لديهم حياة يريدون إيصالها»[190].
هذه هي، إذن، الطريقة الأولى للمشاركة في تواصل الحركة، مشاركة إبداعيّة. وهي طريقة في متناول كلّ واحد منّا: لا يتعلق الأمر بالكتابة عن أحداث وأشخاص فحسب، بل أيضًا بتحديد واقتراح من لديه موهبة في التصوير الفوتوغرافيّ أو في إنشاء مقاطع فيديو أو في وسائل الإعلام الاجتماعية، وما إلى ذلك. هناك بالتأكيد شباب قادرون داخل جماعاتكم.

---

[187] FCL, *Documentazione audiovisiva*, Incontro dei preti di CL, Bologna, 6 marzo 1978.

[188] FCL, *Documentazione audiovisiva*, Diaconia diocesana di CL, Milano, 16 giugno 1980.

[189] FCL, *Documentazione audiovisiva*, Incontro dei preti di CL, Imola (BO), 2 febbraio 1987.

[190] FCL, *Documentazione audiovisiva*, Giornata di fine anno di CL, Milano, 3 giugno 1989.

يمكنكم أيضًا المشاركة عبر استخدام تراتشي لإجراء حوار مع صديق: فإذا كان مفيدًا بالنسبة لي، فقد يكون مفيدًا بالنسبة له أيضًا. فإهداء الاشتراك أو نسخة هي مناسبة للقاء والشهادة والرسالة. اعلموا أنّ الكثير من الأساقفة والسفراء البابويّين – في كلّ أنحاء العالم، حتى في الأماكن التي لا توجد فيها الحركة – يكتبون ليشكرونا على الفرصة المتاحة لهم لقراءة نصوص دون جوسّاني والبقاء على تواصل مع حياة الحركة. لذلك أدعوكم إلى نشر المجلة، مثلا عبر الحديث عن حلتها الجديدة، سواء بشكل شخصيّ أو جماعيّ، كما تفعل – تصوّروا! – نساء روز في كمبالا، اللواتي يعتبرن وصول كلّ إصدار جديد من المجلّة حدثًا. ليتنا نستقبلها نحن أيضًا في كلّ مرّة هكذا!

وأخيرًا، يرجى النظر إلى الاشتراك كطريقة ملموسة لدعم كلّ الجهد الهادف إلى تطوير وسائل التواصل بالحركة – من الموقع إلى وسائل الإعلام الاجتماعيّة إلى المجلة – والتي تعتمد على اهتمام كلّ واحد منا. إنّ الاشتراك في تراتشي هو الطريقة التي يمكننا بها ضمان هذا الدعم لجميع وسائل التواصل خاصّتنا. وشكرًا.

الرسائل الواردة

أيّها الأصدقاء الأعزّاء،
مرّة أخرى، يقدّم لكم الربّ، أنتم المجتمعين للرياضة السنويّة، فرصة استعادة الوعي. وهي عبارة عن هبة إعادة اكتشاف أنّ يسوع هو مصير الإنسان، وبالتالي أنّه الطريق والحقّ والحياة.
هذا العام أيضًا، كما هو الحال في العديد من ظروف الوجود الإنسانيّ ومن خلال العلاقات التي يمتلكها كل منّا بفضل النعمة مع الآخرين، يجعلنا الربّ «أمرً جديدًا». في هذا الزمن الفصحيّ دعتنا الليتورجيا إلى عدم معرفة شيء حسب الجسد، ولا حتّى يسوع نفسه. فإذا كنّا في المسيح، فإنّنا مخلوق جديد.
ما هو السبب الذي يدعو كلّ عام مَن يقود أخويّة شراكة وتحرّر إلى الشعور بواجب تذكير جميع الأعضاء بهذه العناصر الجوهريّة في الحياة المسيحيّة؟ يبدو لي أنّ السبب يوجد في الخطر الكامن في السؤال: «ألا تعرفونه؟». فالالتهاء والنسيان يجتاحان حياتنا اليوميّة، وهكذا نفقد الشيء الوحيد الضروريّ: حبّ المسيح الذي نحتاجه حاجة قصوى.
لذلك فلنتبنَّ الدعوة بأن يهبنا الآب الانتقال من الوهن البشريّ الأصليّ إلى الحياة الجديدة في المسيح القائم من بين الأموات.
بركتي الخاصّة بمودّة
نيافة الكردينال أنجيلو سكولا
رئيس أساقفة ميلانو سابقًا

عزيزي دون خوليان كارّون،
تحيّاتي وصلواتي لك وللجميع من أجل نجاح هذه الرياضة الروحيّة لأخويّة شراكة وتحرّر.
يقدّم لنا موضوع هذه الرياضة «هأَنَذَا صَانِعٌ أَمْرًا جَدِيدًا. أَلاَ تَعْرِفُونَهُ؟» (إشعيا 43، 19) حداثة وجمال ما حدث لنا في اللقاء مع المسيح من خلال خبرة الكاريزما كحدثٍ غير عارض، بل كحدثٍ ثابت في تاريخ النعمة، في شعبٍ تجلّت فيه رحمة الربّ.
يتردّد صدى هذه الحداثة بشكل قويّ في الكلمات التي أشار لنا بها البابا فرنسيس في آخر إرشاداته الرسوليّة "افرحوا وابتهجوا" حيث، وإلى جانب «قداسة "من يقطن بقربنا"» (عدد 7)، يقترح علينا رسالة التطويبات كمسار محدّد لخبرة علمانيّة في

الكنيسة وفي العالم.
ويدعونا البابا، في مواجهة حالة عدم اليقين الحاليّة، كغياب حكومة واضحة للبلاد واستمرار موجة الأزمة الاقتصاديّة، إلى قداسة تكون أيضًا جرأة «*parresia*»، «فإنّ يسوع نفسه يأتي لعوننا ويكرّر بكلّ صفاء وحزم: "لا تَخافوا"»، معبّرًا عن «حرّيّة وجود منفتحة، لأنّها على استعداد لخدمة الله والإخوة» (عدد 129).
في هذا التذكير، الذي يجمع ما بين الجرأة والثقة، نسمع مرّة أخرى كلام الربّ الذي كرّره دون جوسّاني: «حتى شعور رؤوسكم محسوبة. لا تخافوا» (لوقا 12، 7).
فيشعر القلب بالدفء، يعزيّه الحضور العظيم الذي يجعل كلّ الأشياء جديدة ويرسلنا في مهمّة.
أسأل أنا أيضًا، وأنا ملء الثقة، لنفسي وللحركة كلّها موهبة الروح والاستعداد للاستجابة لدعوة الربّ من خلال اتباع المقطع الذي تشير إلينا به.
أحيّيكم بحرارة وأستحضر عليكم كلّكم نعمة الربّ وحماية والدة الله،
سيادة المونسنيور فيليبو سانتورو
مطران تارانتو

عزيزي دون خوليان ،
ما أجمل عنوان هذه الرياضة: «هأَنَذَا صَانِعٌ أَمْرًا جَدِيدًا. أَلاَ تَعْرِفُونَهُ؟» (إشعيا). لقد وصلت كلمة النبيّ إلى الشعب في المنفى، كإعلان عن الخير الذي يزهر داخل أسى وحزن عالم منهار، بعد تدمير الهيكل. فالله يفاجئنا دائمًا، كما يحلو للبابا فرنسيس أن يقول، ويصنع «أَمْرًا جَدِيدًا»، يضخّ حياة جديدة، وحضورًا جديدًا بيننا وفي التاريخ، اليوم كما بالأمس.
ولو من مسافة بعيدة، أشارك بالصلاة والعاطفة كلّ رفقة الأخويّة العظيمة، وأسأل، بشفاعة خادم الله دون جوسّاني، أن يمكّننا روح الربّ من التعرّف إلى علامات هذه "الحداثة"، التي لا يمنعها أو يوقفها شيء.
سيادة المونسنيور كورادو سانغوينتّي
أسقف بافيا

البرقيّات الصادرة

إلى قداسة البابا فرنسيس

صاحب القداسة،
نشكركم على دعوتكم القيام بخبرة حيّة للمسيح الحاضر، متأمّلين بوجهه الذي يعيد تشكيل إنسانيّتنا. لقد خصّصنا لهذا الغرض الرياضة الروحيّة لأخويّة شراكة وتحرّر، والتي جمعت 21000 شخص في ريميني، في حين تواصل آلاف آخرون معنا عبر الأقمار الصناعيّة من 13 دولة. وانطلاقًا من عبارة إشعيا: «هأَنَذَا صَانِعٌ أَمْرًا جَدِيدًا. أَلاَ تَعْرِفُونَهُ؟»، تساءلنا عن سبب صعوبتنا في التعرّف إلى حضور المسيح في التاريخ. لقد أشارت الرسالة العامّة "نور الايمان إلى طريق الإجابة: «إنّ ثقافتنا قد فقدت مفهوم حضور الله الملموس هذا في العالم».
لهذا السبب تماهينا مع الطريقة التي اختارها الله للكشف عن نفسه، من خلال عيشنا لمراحل التاريخ التوراتيّ، حتى تحقيقه الكامل في المسيح، الذي يستمرّ في بلوغ حياتنا بجاذبيّة غالبة عبر الكنيسة. «يجد المرء نفسه في لقاء حيّ» (دون جوسّاني). في هذه الأيّام، سألنا الربّ أن نعود أطفالا، للتعرّف إلى علامات الله والمشاركة في الحداثة التي جلبها المسيح إلى التاريخ. إنّ رفع نظرتنا من أنفسنا نحوه، والسماح لحضوره بأن يخترق قلوبنا، إنّما يسمح لنا بـ«إبقاء النار متقدة»، نار البداية، كما قلت لنا في ساحة القدّيس بطرس. لقد اختبرنا الفرح، وهو علامة على الألفة مع المسيح، الذي يجعلنا نرتل:
Fac ut ardeat cor meum in amando Christum Deum ut sibi complaceam
دع قلبي يضطرم بمحبّة المسيح الإله لأقوم بما يرضيه.
إنّنا نعود إلى ديارنا ونحن أكثر ثقة بأنّ حضور المسيح يحدّد وجهنا في العالم ويشير إلى علّة كلّ بادرة حضور لنا. وعندما نرى كيف تتصرّف كلّ يوم، فإنّنا ندرك أنّ الحضور الأصليّ – كونه يتركّز على المسيح – يمكنه وحده تحريك إنسان اليوم.
في استمرارنا بالصلاة اليوميّة دعمًا لخدمتك البطرسيّة، نعبّر لك عن كلّ محبّتنا البَنَويّة.
الكاهن خوليان كارون

إلى قداسة البابا الفخريّ بنديكتوس السادس عشر

صاحب القداسة،
«هأَنَذَا صَانِعٌ أَمْرًا جَدِيدًا. أَلاَ تَعْرِفُونَهُ؟» لقد رافقنا إشعيا في هذه الرياضة الروحيّة لأخويّة شراكة وتحرّر، في مسيرة معرفة بالمسيح، لكي يحشد الحماسُ له حرّيّتنا محدّدًا وجهنا الإنسانيّ. نطلب، بشفاعة دون جوسّاني، أن يعطيك الآبُ السلامَ وفرحَ القلب دائمًا، طالبين منك ان تصلّي من أجل نصبح كالأطفال فنتعرّف إلى براعم الله العاملة في العالم ونتبعها بكلّ طاقة حريتنا.
الكاهن خوليان كارّون

إلى نيافة الكردينال جوالتييرو باسّيتّي
رئيس مؤتمر الأساقفة الإيطاليّ

صاحب النيافة العزيز،
في الرياضة الروحيّة لأخويّة شراكة وتحرّر، والتي جمعت 21000 شخص في ريميني، تأمّلنا بكلمات إشعيا، «هأَنَذَا صَانِعٌ أَمْرًا جَدِيدًا. أَلاَ تَعْرِفُونَهُ؟» نؤكّد التزامنا بأن نكون أدوات حضور الكنيسة في إيطاليا راغبين في أن نعود كالأطفال إلى معرفة المسيح والنموّ في الألفة معه التي تحدّد وجهنا في العالم، وفقا لتعليم دون جوسّاني واتباع البابا فرنسيس.
الكاهن خوليان كارون

إلى نيافة الكردينال أنجيلو سكولا
رئيس أساقفة ميلانو سابقًا

عزيزي أنجيلو ،
مع وعينا بمخاطر الالتهاء ونسيان ما تحدّثت عنه في رسالتك، استأنفنا الدرس العظيم الذي قام به فون بالتازار والذي دعا فيه لنصبح أطفالًا كي نعرف المسيح الحاضر، وهو علّة أملنا الوحيد. نتمنّى لك أن تعيش أكثر فأكثر الألفة مع المسيح، الشيء

الضروريّ الوحيد بالنسبة لنا – في اتباعنا لدون جوسّاني والبابا – كي نكون أدوات تنامي حداثة المسيح التي تجدّد وجه الأرض، بدءًا من وجهنا.
الكاهن خوليان كارّون

إلى سيادة المونسنيور كورّادو سانغوينتي
أسقف بافيا

عزيزي كورّادو ،
في رياضة الأخويّة حصل فينا الحدثُ الذي استحوذ على حياتنا كأمر جديد، لدرجة أصبح فيها يسوع أكثر ألفة فينا وبيننا. مع امتناننا لصلواتك، نحن أكثر استعدادًا لملاحظة علامات عمله في العالم.
الكاهن خوليان كارون

في رفقة الفنّ

إشراف ساندرو كييريتشي ونانديا ريغي
(دليل لقراءة الصور المأخوذة من "تاريخ الفنّ" والّتي تصحب الاستماع للمقاطع الموسيقيّة الكلاسيكيّة عند الدخول والخروج)

قليلٌ من الفنانين يروون التاريخ المقدّس كحدثٍ يتكرّر باستمرار في الحاضر مثلما فعل كارافادجو. يشير استخدام النماذج المأخوذة من الحياة اليوميّة إلى أنّ اختبار المسيح الحاضر هو فرصة متاحة لنا جميعًا، بغضّ النظر عن حالتنا. يدفع حدسُ هذه الإمكانيّة بالفنّان، الذي تحرّكه الرغبة في فهم المعنى العميق للواقع، إلى أن يمثل نفسه مرارًا وتكرارًا كمشارك ومتفرّج في دراما الله الذي صار إنسانًا.

تضحية إسحق – فلورنسا، متحف أوفّيتسي

البشارة – نانسي، متحف الفنون الجميلة

العائلة المقدّسة مع القدّيس يوحنا الطفل– مجموعة خاصّة (نيويورك، متحف متروبوليتان)

عذراء فرسان القدّيسة حنّة – روما، غاليريا بورغيزي

سجود الرعاة – ميسّينا، المتحف الإقليميّ

استراحة خلال الهروب إلى مصر – روما، غاليريا دوريا بامفيلي

دعوة متّى – روما، كنيسة القدّيس لويس ملك فرنسا

مرتا ومريم المجدليّة – ديترويت، معهد ديترويت للفنون

القبض على المسيح – دبلن، معرض أيرلندا الوطني

دفن المسيح –متحف اللوحات بالفاتيكان

عشاء عمّاوس – لندن، المعرض الوطنيّ

عشاء عمّاوس – ميلانو، متحف بريرا

ضعف إيمان توما – بوتسدام، متحف سانسوسيه

رقاد السيّدة العذراء – باريس، متحف اللوفر

صلب بطرس – روما، كنيسة سانتا ماريا ديل بوبولو

توبة شاول – روما، كنيسة سانتا ماريا ديل بوبولو

القدّيس متّى والملاك، روما، كنيسة القدّيس لويس ملك فرنسا،

استشهاد القدّيس متّى – روما، كنيسة القدّيس لويس ملك فرنسا

دفن القدّيسة لوتشيا – سيراكوزا، كنيسة القدّيسة لوتشيا في القبر

استشهاد القدّيسة أورسولا – نابولي، مجموعة بنك إنتيزا

أعمال الرحمة السبعة – نابولي، بيو مونتي ديلا ميزيريكورديا (جبل الرحمة المقدّس)

سيّدة الحجاج – روما، كنيسة القدّيس أغوسطينوس

تعليقات دون جوسّاني على موسيقى الدخول

النصوص مأخوذة من كتاب "سبيرتو جنتيل". دعوة للاستماع إلى الموسيقى الرائعة بقيادة لويجي جوسّاني، الذي حرّره ساندرو كيبريتشي وسيلفيا جانباولو، دار نشر بور، ميلانو 2011

الجمعة 27 نيسان / أبريل مساءً – أنتونين دفوراك، ستابات ماتِر، العمل 58
«دع قلبي يدرك هذه القوة السرّيّة والحقيقيّة التي يهتزّ لها كلّ شيء، ويولد من جديد كلّ شيء. دع قلبي يدرك السرّ الإلهيّ الذي يعطي الحياة والذي دعاني، ذاك الحضور البشريّ الذي أشركني وتشارك معي» (ص. 289).

السبت، 28 نيسان / أبريل صباحًا – فولفغانغ أماديوس موزارت، القدّاس العظيم بمقام دو مينور، ك 427
«لقد تواصل الله مع الإنسان في جسده الزائل، في وقته وفضائه المُعاش، في حياته كوقت وفضاء مُعاش، كعلاقة مُعاشة. يطلّ السرّ على الخبرة، في شيء نعاني منه، نرغب به، نخطأ فيه، نقوم به بشكل صحيح، في شيء نختبره؛ في الخبرة الإنسانيّة، كما هي، بكاملها.
ليتنا نستطيع، مثل موزارت، أن نتأمّل بنفس البساطة والقوّة ببداية تاريخ الرحمة والمغفرة في العالم، وننهل من النبع الذي هو "نعم" مريم» (ص. 55).

السبت 28 نيسان / أبريل بعد الظهر – أنتونين دفوراك، ثلاثيّ رقم 4 دو مينور، العمل 90 "دومكي"
«عند استماعنا إلى مقاطع دفوراك هذه، القصيرة ولكن المعبّرة والنقيّة كالهواء الجبليّ النادر، لا يمكننا إلا أن نعود أطفالا. يجسّد دفوراك قلب الطفل. [...]
والمطلوب لتذوّق هذه الموسيقى هو أن نكون صغارًا من هذا القبيل، أي بسطاء القلب وفقراء في الروح. فالفقير هو من يعترف بأنّه لا يملك شيئًا: أنا لست شيئًا، أنتَ – أيّها السرّ الذي تفعل كلّ شيء – أنتَ. إنّ التعبير عن فقرنا يُسمّى السؤال» (ص.

.(300

الأحد 29 نيسان / أبريل صباحًا – لودفيغ فان بيتهوفن، السيمفونيّة رقم 9
«نحن مثل سيمفونيّة، صغيرة مقارنة بما ينبغي أن تكون، مسكينة بعض الشيء، خائفة بعض الشيء، مرتعبة بعض الشيء. غير أنّ كاتدرائيّتنا، غير المصنوعة من النوطات، موجودة لتملأ التاريخ في ما يخصّ السيمفونيّة التاسعة [...]. ونحن نقترب من هذا المصير من خلال إطاعتنا لواجب، منضمّين بحرّيّتنا إلى الواجب الموكل إلينا. وما هو هذا الواجب؟ واجب الحياة هو الأبوّة والأمومة، أي الوصول إلى نضج الحبّ. أمّا واجب الحياة فهو تقليد الآب مواصلين أغنية يسوع في التاريخ» (ص. 117).

الفهرس

رسالة البابا فرنسيس 3

الجمعة 27 نيسان/أبريل بعد الظهر
المقدّمة 4
القدّاس الإلهيّ - عظة دون ستيفانو ألبيرتي 18

السبت 28 نيسان/أبريل صباحًا
التأمّل الأوّل - **«ونحن قد عرفنا و آمنّا بالمحبّة التي عند الله لنا!»** 19
القدّاس الإلهيّ - عظة الكردينال كفين جوزف فارّيل 38

السبت 28 نيسان/أبريل بعد الظهر
التأمّل الثاني - **«طوبى للعيون التي ترى ما ترون»** 43

الأحد 29 نيسان/أبريل صباحًا
الجمعيّة العموميّة 65
القدّاس الإلهيّ - عظة دون خوليان كارّون 90
إشعارات 92
الرسائل الواردة 97
البرقيّات الصادرة 99
في رفقة الفنّ 102